أحوال النبي ﷺ في الحج

تأليف

فيصل بن علي البعداني

ح مؤسسة صلاح محمد السليم، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البعداني، فيصل علي (الرياض)
أحوال النبي ﷺ في الحج - الرياض
١٦٧ ص؛ ١٤X ٢٠
ردمك: ٨ - ٣٢ - ٧١٨ - ٩٩٦٠
١ - الحج ٢ - الحديث - مباحث عامة
أ - العنوان

ديوي ٢٥٢,٥ ٢١/٥٠١٤

رقم الإيداع: ٢١/٥٠١٤
ردمك: ٨ - ٣٢ - ٧١٨ - ٩٩٦٠

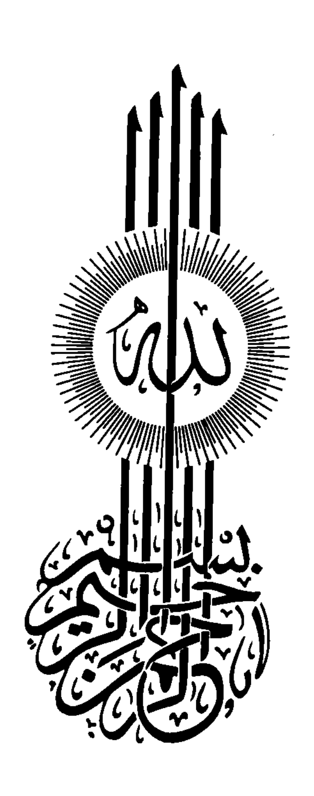
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد الله الذي شرع لعباده حج بيته العتيق، وهو ـ سبحانه ـ الغني عن العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد قدوة الحجيج، وأسوة المعتمرين، وعلى آله وصحبه، ومن اقتدى بهم وسلك نهجهم إلى يوم الدين. وبعد:

فالحج فريضة شرعية، ومناسبة عُمْرية؛ إذ يجب على المسلم المستطيع في حياته مرة واحدة.. ينتقل فيه من بلده إلى بلد لا يعرفها، وظروف لم يألفها.

ينفق فيه ماله، ويترك عياله، ويبذل جهده، ويتكبد مشاقّ السفر، ومتاعب الحلّ والترحال، والنزول والانتقال، في مواقف يزدحم فيها الناس، في الزمان والمكان نفسهما...

وفي ظل انتشار الجهل في صفوف كثير من المسلمين، تتجلى آثار الجهل العقدي والعلمي والوعي الحضاري في اجتماع الحجيج لأداء نسكهم، فتروعك مظاهر الشرك والبدع، والمعاصي والمخالفات في أمور النُّسك خاصة، والعبادات عامة، وتحزنك أمارات التخلف الحضاري بصوره المختلفة.. ويزداد الحال سوءاً حين يسعى بعض طلاب الدنيا للتأكل والانتفاع وتحقيق مزيد من المكاسب الدنيوية على حساب إخلال

الحجيج بنسكهم واستمرار جهلهم بدينهم وتخلفهم. . فتشعر بثقل التَّبِعَة، وعِظَم المسؤولية.

وانطلاقاً من رسالة المنتدىٰ الدعوية، واهتمامه بنشر العلم الشرعي، فقد كانت له رعاية واهتمام بالحديث عن المناسبات المتكررة، وبيان الموقف الشرعي منها، وتوضيح لما يحتاجه المسلم من معرفة للواجب ليمتثله، وللسُنَّة ليتأسىٰ بها، وللمنكر والبدع ليجتنبها.

ويأتي الحج علىٰ رأس تلك المناسبات؛ لكونه الركن الوحيد ـ من أركان الإسلام ـ الذي يؤدىٰ في مكان واحد وزمان واحد، مما يُعظم من عِوَز العبد إلىٰ معرفة أحكام هذا النُّسك العظيم وأعماله بوجه صحيح.

ولما كان الطريق الوحيد إلىٰ معرفة ذلك هو التعرف علىٰ هدي النبي ﷺ في الحج وأحواله فيه، جاءت هذه الدراسة من المؤلف ـ جزاه الله خيراً ـ، وقد رجع فيها إلىٰ جملة وافرة من كتب السُنَّة المطهرة؛ لمحاولة استقصاء أحوال النبي ﷺ في حجِّه، فاجتمعت لديه مادة ثرية قام بتحليلها والوقوف معها وقفات متأنية، لبيان ما يجب علىٰ الحاج حيالها.

نسأل الله أن يتقبلها بواسع رحمته، وجزيل مِنَّتِه، وأن يكتب لها القبول بين الحجيج، وينفعهم بها بجوده وكرمه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المنتدى الإسلامي

المقدمة

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلقد أمر الله ـ تعالى ـ عباده باتباع نبيه ﷺ، فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وجعله ـ سبحانه ـ قدوة حسنة لهم، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]، وأخبر ـ عز وجل ـ بأن طاعته ﷺ عنوان محبته، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وأوضح ـ سبحانه ـ بأن طاعته ﷺ من طاعته ـ عز وجل ـ، فقال: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، ورتب ـ تعالىٰ ـ الأجر العظيم لمن اتبع رسوله ﷺ وامتثل أمره، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

والحج من أوضح عبادات الإسلام التي يتجلىٰ فيها اتباع النبي ﷺ والتأسي به، وقد اعتنىٰ طائفة من العلماء وطلاب العلم اليوم بالحديث

عن أحكامه، وتعداد أخطاء الحجيج فيه، وبيان ما يصح به النسك أو يبطل، وقد أدىٰ ذلك إلىٰ سد ثغرة مهمة، وإلىٰ نشر العلم بين الناس في هذه الشعيرة العظيمة، ولكن يبقى جانب يحتاج إلى أن يُعْتَنَى ويُهْتَم به ،ألا وهو أحواله ﷺ في الحج وهديه فيه، وتتجلى أهمية معرفتها من خلال أمور عدة، لعل من أهمها :

* أن في دراسة ذلك ووعيه، ومن ثَمَّ تطبيقه: رعاية لِحِكَم الحج ومقاصده، وتحقيقاً لمقامات العبودية فيه.

* جهل كثير من المسلمين بأحواله ﷺ في الحج، واكتفاؤهم بالحرص علىٰ معرفة أحكام المناسك فقط.

* ما تتضمنه أحواله ﷺ في الحج من معاني ومقاصد غائبة عن التطبيق، حتىٰ لدىٰ طائفة من طلبة العلم المعنيين بدراسة السُنَّة وامتثالها.

* أن للحج طبيعة خاصة تعامل فيها النبي ﷺ مع شرائح الناس المختلفة، ولقي فئات لم يتهيأ لها العيش معه بهذه الصورة، بل ربما لم يسبق لبعضهم لُقياه ﷺ في غيره؛ لذا فإن فيه من جوانب التعامل مع الناس ورعايتهم ما ليس في سواه.

* اجتماع زوجاته ﷺ وكثير من ضعفة أهله معه في تلك السفرة، مما مكن من إظهار جانب من هديه ﷺ في التعامل معهم بشكل لم يبرز من قبل.

ولذا جاءت هذه الدراسة لتحاول إعطاء توصيف شامل، وصورة واضحة عن أحواله ﷺ في الحج؛ علّ ذلك أن يكون فيه مزيد عون للمتأسين به ﷺ، والسائرين على نهجه، ونظراً لكثرة الحديث عن صفة نسكه ﷺ، فلن يتم التعرض لذلك، وسيُكتفى بإبراز نماذج وإشارات عامة في الجوانب الأخرى؛ فالموضوع أعظم من أن تحيط به دراسة مقتضبة.

ورغبة في تقريب الموضوع ولمٍّ شتاته؛ فسيكون في ثلاثة فصول :

الفصل الأول: أحوال النبي ﷺ في الحج مع ربه.

الفصل الثاني: أحوال النبي ﷺ في الحج مع أُمَّته.

الفصل الثالث: أحوال النبي ﷺ في الحج مع أهله.

أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى - كما فتح بهذا الكتاب بفضله وكرمه - أن يجعله كتاباً نافعاً للحجاج والمعتمرين، وعوناً للمتأسين والمقتدين بسيِّد المرسلين، وأن يتقبله برحمته، إنه سميع مجيب.

ولا يفوتني هنا شكر من كان له إسهام في خروج الكتاب بهذه الصورة، فلهم مني خالص الدعاء، وجزيل الشكر والامتنان.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

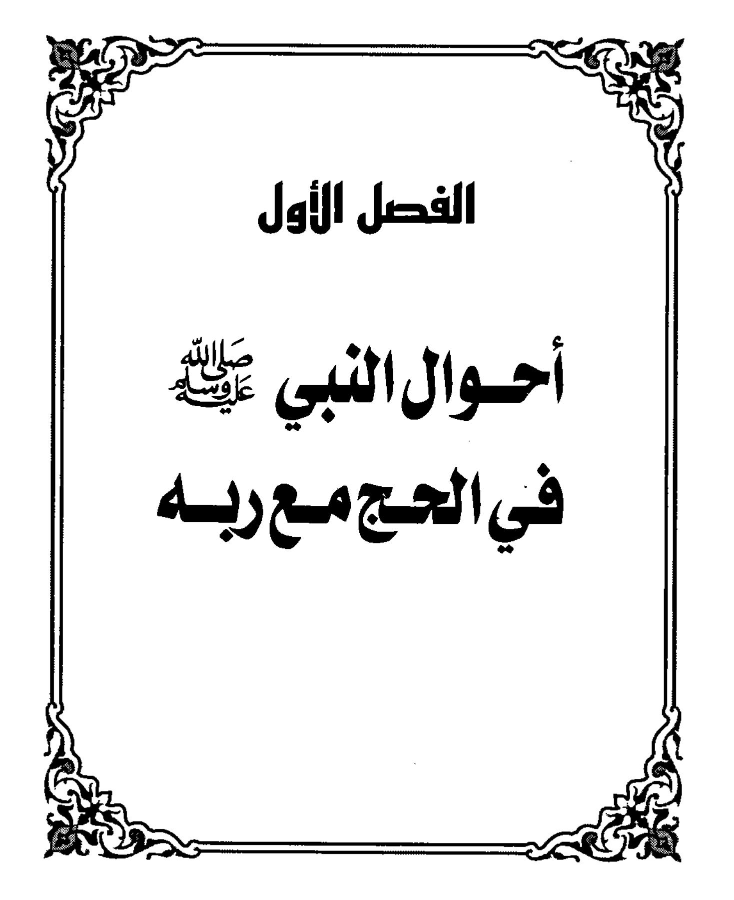

الفصل الأول

أحوال النبي ﷺ في الحج مع ربه

أحوال النبي ﷺ في الحج مع ربه

عظم الصلة بالله ـ تعالىٰ ـ، وقوة الارتباط به: ثروة المتقين، ورأس مال العابدين، ويُعدُّ الحج من أهم محاضن التقوىٰ ومدارس العبودية، تتقوىٰ فيه صلة العبد بالله، وتتربىٰ به النفس البشرية علىٰ التقلب في مقامات العبودية، ومنازل الخضوع لله والانكسار بين يديه سبحانه. وقد قام النبي ﷺ فيه ـ وهو أعبد الناس لربه، وأكثرهم تعلقاً وارتباطاً به ـ بأدوار مختلفة؛ إذ علَّم الحجيج وقادهم، واعتنىٰ بزوجاته ورعاهُنَّ، وأحسن إلىٰ أهل بيته وصبر عليهم، ولكن ذلك لم يَحُل بينه وبين عظم الصلة بربه ودوامها، ولم يشغله عن الانكسار التام بين يدي مولاه.

ولو أخذنا نعدد صور خضوعه ﷺ في الحج لربه، ومظاهر انقياده فيه لخالقه لطال المقام؛ ولذا فسيتم الاقتصار على أهمها، ومن ذلك:

١ ـ تحقيق التوحيد والعناية به:

يُعَدُّ التوحيد أبرز القضايا الرئيسة التي عمل النبي ﷺ في الحج علىٰ تحقيقها والعناية بها؛ امتثالاً لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] الذي تضمن الأمر بإخلاص النُّسك وإتقانه[1]، وهذا جلي

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي: ٩٠.

لمن تأمل أعماله ﷺ في الحج. ولعل من أبرز ما ظهر فيه ذلك:

التلبية - وهي شعار الحج[١] - التي تتضمن إفراد الله - وحده لا شريك له - بالعمل، كما جاء في حديث جابر - رضي الله عنه - قال: «فأهلَّ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»[٢]، قال ابن عمر - رضي الله عنهما -: «لا يزيد علىٰ هؤلاء الكلمات»[٣]، وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال في تلبيته: «لبيك إله الحق، لبيك»[٤].

ومنها: عنايته ﷺ بإخلاص العمل، وسؤاله من ربه أن يُجنِّبه الرياء والسمعة، كما في حديث أنس - رضي الله عنه - مرفوعاً، قال: «اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة»[٥].

ومنها: قراءته ﷺ في ركعتي الطواف بسورتي الإخلاص، كما روىٰ جابر - رضي الله عنه - قال: «فقرأ فيهما بالتوحيد، و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا

(١) جاء جعل التلبية شعاراً للحج في حديث حسن، أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، رقم: ٢٦٢٨، ٢٦٢٩.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٥٩١٥، صحيح مسلم، رقم: ١١٨٤.

(٤) سنن ابن ماجة، رقم: ٢٩٢٠، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٦٢.

(٥) سنن ابن ماجة، رقم: ٢٨٩٠، وضعف إسناده الحافظ في الفتح: ٣/٤٤٦، وصححه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة: ٢٦١٧.

﴿الْكَافِـرُونَ﴾ [الكافـرون: ١]»[١]، وفي رواية: «قـرأ في ركعتي الطواف بسورتي الإخلاص: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِـرُونَ﴾ [الكافـرون: ١] و ﴿قُـلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]»[٢].

ومنها: دعاؤه ﷺ على الصفا والمروة بالتوحيد، كما في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ قـال: «. . فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحَّد الله وكبَّره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحـده. . . ـ قال مثل هذا ثلاث مرات ـ. . . حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا. . .»[٣].

ومنها: دعاؤه ﷺ في عرفة بالتوحيد، كما في حديث: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، له الملك، وله الحـمـد، وهو على كل شيء قـدير»[٤]، وحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «كان أكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة: «لا إله إلا الله. .» الحديث، وزاد فيه: «بيده الخير»[٥].

---

(١) سنن أبي داود، رقم: ١٩٠٩، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ٦٨٩.
(٢) جامع الترمذي، رقم: ٨٦٩، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٨٩.
(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.
(٤) جامع الترمذي، رقم: ٣٥٨٥، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٨٣٧.
(٥) المسند لأحمد: ٦٩٦١، وفي سنده ضعف، لكن له شاهد يقوى به، فهو حسن لغيره.

والناظر في أحوال كثير من الحجاج ـ والمسلمين عموماً ـ في هذا الزمان يرىٰ ـ مع الأسف الشديد ـ ألواناً من البدع والخرافات، بل والشركيات التي تطاير شررها بين الناس، ولذا فإن علىٰ الدعاة وأهل العلم ـ وبخاصة في هذا الجمع المبارك ـ مسؤولية عظيمة في تعليم الناس أصول الدين وبيان حقيقة التوحيد الذي جاءت به الرسل، وتحذيرهم من الشرك بنوعيه والضلالات. وقد كان من هدي النبي ﷺ البدء بأمر التوحيد، وتقديمه علىٰ كافة الأركان العملية، فعندما بعث معاذاً ـ رضي الله عنه ـ إلىٰ اليمن قال له: «ادعهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وتُرَدُّ علىٰ فقرائهم»[1].

٢ ـ تعظيم شعائر الله:

حث الله ـ تعالىٰ ـ عباده علىٰ تعظيم شعائره وإجلالها[2]، وحفظ

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٣٩٥.

(٢) يراد بشعائر الله ـ تعالىٰ ـ: معالمه ومواضع عبادته، وكل أمر له ـ سبحانه ـ أشعر به وأعلم، ولذا قال عطاء: «شعائر الله: جميع ما أمر الله به ونهىٰ عنه»، وقال الحسن: «هي دين الله كله»، انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢/ ٣٧، ٦/ ٣٧، ١٢/ ١٨٠.

حرماته وصيانتها، وجعل ذلك ركن التقوىٰ، وشرط العبودية، وسبيل العبد لنيل الثواب، وتحصيل الخير عند لقائه ربِّ الأرباب، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال ﷺ ـ وهو المبلغ عن الله ـ: «اتق المحارم تكن أعبد الناس»(١)، وفي المقابل حذَّر ـ عز وجل ـ من الاستخفاف بشعائره، وهتك حرماته، وقربان حدوده، وتناولها بما لا يحل، فقال ـ تعالىٰ ـ عن البيت الحرام: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقال ـ عز من قائل ـ: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

[النساء: ١٤].

فعقل ذلك المصطفون، وأدركه العارفون، وكان علىٰ رأس القوم: إمام المرسلين، وسيد الخلق أجمعين، أكثر المتقين لشعائر الله ـ تعالىٰ ـ تفخيماً وتوقيراً، وأعظمهم لحرماته مراعاة وصيانة، وأبعدهم عن انتهاك حدوده وتجاوز حماه.

---

(١) جامع الترمذي، رقم: ٢٣٠٥، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٨٧٦.

وفي الحج بان تعظيمه ﷺ لشعائر الحج[١]، وحفظه لحرماته من خلال صور شتى، كان من أبرزها:

اغتساله ﷺ للإحرام، وتلبيده لرأسه[٢]، وتطيُّبه بعد الغسل بأطيب طيب وجد، كما في حديث زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ «أنه رأىٰ النبي ﷺ تجرد لإهلاله واغتسل»[٣]، وحديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يُهِلُّ ملبِّداً»[٤]، وحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كنت أُطَيِّب رسول الله ﷺ قبل أن يُحْرِم بأطيب الطيب»[٥]، وفي رواية: «كنت أُطيِّب النبي بأطيب ما يجد، حتىٰ أجد وبيص الطيب في رأسه ولحيته»[٦].

ومنها: سَوقه ﷺ البُدْن معه هدياً من ذي الحليفة، وهي من شعائر الله، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [الحج:

---

(١) شعائر الحج هي: أعمال النسك ومواضعه، انظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري: ٣/ ٥٠٩.

(٢) تلبيد الرأس: جعل شيء في الشعر كالصمغ ونحوه، ليجتمع الشعر ويسكن فلا ينتشر ويتشعث أو يقع فيه قمل أثناء الإحرام، انظر: فتح الباري لابن حجر: ٣/ ٤٠٠.

(٣) جامع الترمذي، رقم: ٨٣٠، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٦٤.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٠.

(٥) صحيح مسلم، رقم: ١١٨٩، سنن الدارمي، رقم: ١٨٠١، واللفظ له.

(٦) صحيح البخاري، رقم: ٥٩٢٣. والمراد بـ(وبيص الطيب): بريقه ولمعانه. انظر لسان العرب مادة (وبص).

٣٦]، وإشعاره ﷺ وتقليده لبعضها بيده الشريفة[١]، كما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «صلىٰ رسول الله ﷺ الظهر بذي الحُلَيفة، ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن، وسَلَتَ الدم، وقلَّدها نعلين»[٢]، قال ابن كثير: «وهذا يدل علىٰ أنه - عليه السلام - تعاطىٰ هذا الإشعار والتقليد بيده الكريمة في هذه البدنة، وتولىٰ إشعار بقية الهدي وتقليده غيره»[٣]، ومصداق ذلك الرواية الأخرىٰ، وفيها: «وأمر ببُدْنه أن تشعر من شقها الأيمن»[٤]. وكذا: نهيه ﷺ الواجد عن ركوب الهدي، كما يدل لذلك حديث جابر - رضي الله عنه - قال: «اركبها بالمعروف إذا أُلجئت إليها حتىٰ تجد ظهراً»[٥].

ومنها: لهجه ﷺ بالتلبية من لدن دخوله في النُّسك إلىٰ حين رميه جمرة العقبة يوم النحر، كما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - «أن النبي ﷺ لبىٰ حتىٰ رمىٰ جمرة العقبة»[٦]، وحديث ابن مسعود

---

(١) يراد بإشعار البُدْن: حز سنامها حتىٰ يسيل منه الدم؛ ليكون ذلك علامة لها يعرف بها أنها هدي، ويراد بتقليدها: وضع قلادة من نعل ونحوه علىٰ أسنمتها وأعناقها؛ ليكون ذلك علامة علىٰ أنها هدي، انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٦/ ٣٧، ٦/ ٤٠.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢٤٣.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٢٢٨.

(٤) صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٦٠٩، وإسناده صحيح.

(٥) صحيح مسلم، رقم: ١٣٢٤.

(٦) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٤٠، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٦٤.

ـ رضي الله عنه ـ قال: «والذي بعث محمداً بالحق لقد خرجت مع رسول الله ﷺ من منىٰ إلىٰ عرفة فما ترك التلبية حتىٰ رمىٰ جمرة العقبة إلا أن يخلطها بتهليل أو تكبير»(١).

وكذا رفعه ﷺ الصوت بها حتىٰ سمعها أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ منه، كما يدل لذلك حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يُهِلُّ مُلَبِّدَ يقول: لبيك...»(٢)، وحديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن جبريل أتاني فأمرني أن أعلن بالتلبية»(٣)، وحديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ نصرخ بالحج صراخاً»(٤).

ومنها: اغتساله ﷺ قبل دخول مكة؛ ليزيل عنه شعث السفر، وبدؤه حين دخل المسجد بالطواف، كما روىٰ نافع أن ابن عمر كان لا يقدم مكة

---

(١) المستدرك للحاكم: ١/ ٤٦١، صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٨٠٦، وإسناده حسن.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٥٩١٥، صحيح مسلم، رقم: ١١٨٤.

(٣) المسند لأحمد، رقم: ٢٩٥٠، وإسناده حسن، وقد أمر النبي ﷺ أصحابه الكرام ورغبهم بالصدع بذلك، إذ قال ﷺ: «أتاني جبريل ـ عليه السلام ـ فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال أو التلبية»، أخرجه أحمد في المسند، رقم: ٨٣١٤، والبيهقي في الكبرىٰ: ٥/ ٤٢، وصحح الحديث الألباني في صحيح الجامع، رقم: ١٣٨٤، وقال ﷺ: «ما من ملب يلبي إلا لبىٰ ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتىٰ تنقطع الأرض من ههنا وههنا»، أخرجه ابن ماجة في سننه، رقم: ٢٩٢١، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٦٣.

(٤) صحيح مسلم، رقم: ١٢٤٧.

إلا بات بذي طوىٰ حتىٰ يصبح ويغتسل، ثم يدخل مكة نهاراً، ويذكر عن النبي ﷺ أنه فعله[١]، وكما في حديث عائشة - رضي الله عنها -: «أن أول شيء بدأ به حين قدم النبي ﷺ أنه توضأ، ثم طاف»[٢].

ومنها: احتفاؤه ﷺ بالحجر الأسود، إذ التزمه وقبَّله وسجد عليه، وبكىٰ عند ذلك، واستلامه ﷺ للركن اليماني، كما جاء عن سويد بن غَفَلة، قال: «رأيت عمر قبَّل الحجر والتزمه، وقال: رأيت رسول الله ﷺ بك حفياً»[٣]، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - «أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أكبَّ علىٰ الركن، فقال: إني لأعلم أنك حجر، ولو لم أرَ حِبِّي ﷺ قبَّلك واستلمك ما استلمتك ولا قبَّلتك»[٤]، وعنه أيضاً قال: «رأيت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قَبَّله وسجد عليه، ثم قال عمر - رضي الله عنه -: رأيت رسول الله ﷺ فعل هكذا، ففعلت»[٥]، وعن جابر - رضي الله عنه - قال: «فبدأ بالحجر فاستلمه، وفاضت عيناه بالبكاء»[٦]، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «كان

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢٥٩.
(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٦١٥.
(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٢٧١.
(٤) المسند لأحمد، رقم: ١٣١، وإسناده جيد قوي.
(٥) المسند للطيالسي: ١/ ٢١٥-٢١٦، وإسناده حسن، كما قال ابن كثير في السيرة: ٤/ ٣٠٧، السنن الكبرىٰ للبيهقي: ٥/ ٧٤، ورجاله ثقات.
(٦) السنن الكبرىٰ للبيهقي: ٥/ ٧٤، وقال ابن كثير في السيرة النبوية: ٤/ ٣١٧، وهذا إسناد جيد.

رسول الله ﷺ لا يدع أن يستلم الركن اليماني والحجر في كل طوفة»(١).

ومنها: صلاته ﷺ خلف المقام، وبدؤه السعي بالصفا، وقيامه عليه وعلى المروة؛ للذكر والدعاء، كما جاء في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ الطويل قال: «ثم نفذ إلى مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، فجعل المقام بينه وبين البيت، . . . ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] أبدأ بما بدأ الله به. فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة. . . ففعل على المروة كما فعل على الصفا»(٢)، وفي رواية قال: «ثم أتى المقام فقال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، فصلى ركعتين، والمقام بينه وبين البيت. . .»(٣).

---

(١) سنن أبي داود، رقم: ١٨٧٦، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٦٥٢.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) جامع الترمذي، رقم: ٨٥٦، وقال: حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٧٩.

ومنها: وقوفه ﷺ طويلاً بالمشعر الحرام؛ امتثالاً لقوله - تعالىٰ -: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، ذاكراً لربه - تعالىٰ - فيه، وملتجئاً إليه، ومنطرحاً بين يديه، قال جابر - رضي الله عنه - واصفاً الحال: «وصلىٰ الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتىٰ أتىٰ المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعاه وكبَّره وهلَّله ووحَّده، فلم يزل واقفاً حتىٰ أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس»(١).

ومنها: تطيُّبه ﷺ لزيارة البيت يوم النحر بعد حِلِّه الأول، كما في حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «طيبت رسول الله ﷺ من منىٰ قبل أن يزور البيت»(٢).

ومنها: تعظيمه ﷺ لزمان النُّسك ومكانه، إذ قال ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»(٣)، وقال ﷺ: «إن أعظم الأيام عند الله - تبارك وتعالىٰ - يوم النحر

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٢) صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٩٣٤، صحيح ابن حبان، رقم: ٣٨٨١، واللفظ له، وإسناده صحيح.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

ثم يوم القَرّ»(١)، وقال ﷺ: «يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب»(٢)، وقال ﷺ محرضاً الحجيج على صيانة ذلك، وعدم هتك حرمة شيء منه، : «والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(٣)، وقال ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه»(٤)، وهذا كقوله - تعالى -: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ١٩٧].

ومن تأمل في الحج اليوم وجَد: انتهاكاً صارخاً - من قبل كثيرين - لحدود الله وحرماته، واستهانة جلية بأعمال الحج ومواضعه، وذلك ناتج عن عدم قَدْر الله حق قدره، كما يقول ابن القيم - رحمه الله - في كلام له نفيس: «لم يُقدِّره حق قدره: من هان عليه أمره فعصاه، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذكره فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله، فللَّه الفَضْلَة من

---

(١) سنن أبي داود، رقم: ١٧٦٥، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٥٥٢، ويوم القَرّ: اليوم التالي ليوم النحر، وسمي بذلك؛ لأن الناس يَقِرُّون فيه بمنى ويقيمون، انظر: النهاية لابن الأثير: ٤/ ٣٧.

(٢) جامع الترمذي، رقم: ٧٧٣، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٢٠.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٧٧٣، صحيح مسلم، رقم: ١٣٤٩.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ١٨١٩.

قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله، وسواه المقدم في ذلك؛ لأنه المهم عنده!»[١]، ولذا فواجبك - أخي -: التأسي برسول الله ﷺ في إجلال شعائر الله وتعظيم حدوده، والقيام بنسكك على وجهه، وأن تتواصى مع الخلق بالحق، وبالصبر عليه.

٣- إظهار البراءة من المشركين وتعمُّد مخالفتهم:

الإسلام والشرك ضدان لا يجتمعان، لا يوجد أحدهما إلا بذهاب الآخر، كالليل والنهار، والشمس والقمر، ولذا فقد كان أول أمر قام به المسلمون بعد أن استتب لهم الأمر في مكة، هو: إزالة مظاهر الشرك، وطمس معالم الوثنية، بل إن النبي ﷺ أعطى ذلك طابع الاستعجال، فحين دخل المسجد الحرام أخذ يطعن الأصنام التي حول الكعبة بعُود في يده، ويقول: «﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]»[٢]، وامتنع ﷺ عن دخول الكعبة حتى تُخْرَج منها الأوثان، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «إن رسول الله ﷺ لما قدم أَبَى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت»[٣]، وحين أنزل الله - تعالى - بعد ذلك قوله - عز وجل -:

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم: ٩٨.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٤٢٨٧.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٦٠١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، بادر ﷺ إلى امتثال أمر ربه، فأمر صاحبه أبا بكر - رضي الله عنه - بأن يؤذن في الناس سنة تسع: «أن لا يحج بعد العام مشرك»(١).

وحرص ﷺ في حجته على تقصد مخالفة المشركين، والسير على سنَّة أبينا إبراهيم - عليه السلام - في كثير من شعائر الحج وأحكامه، ووصل الأمر غايته حين قال ﷺ للناس عن المشركين: «هدينا مخالف هديهم»(٢)، وحين تبرأ ﷺ من أعمالهم في خطبته بعرفة فقال: «ألا كلُّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد، فقتلته هذيل. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله»(٣).

كما تجلى ذلك بإظهاره ﷺ وحدة الدين الملِّي، وذلك حين أرسل ﷺ ابن مربع - رضي الله عنه - إلى الناس، وهم وقوف بعرفة، يقول لهم: «كونوا على مشاعركم؛ فإنكم على إرث إبراهيم»(٤)، وتجلى - أيضاً -

(١) صحيح البخاري، رقم: ٣٦٩، صحيح مسلم، رقم: ١٣٤٧، سنن النسائي، رقم: ٢٩٥٨.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ١٢٥، واللفظ له، المستدرك للحاكم: ٢/ ٣٠٤، وقال على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وظاهر صنيع ابن كثير في التفسير: ١/ ٢٤٢ تصحيحه.

(٣) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٤) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠١١، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٣٨.

ببيانه للناس بأن لهم تاريخاً مجيداً، وسلفاً عظيماً من الموحدين في أداء النُّسك، إذ ذكر ﷺ لهم في أكثر من مقام حج الأنبياء ـ عليهم السلام ـ للبيت، ومن ذلك: قوله ﷺ حين مرَّ بوادي الأزرق: «أيُّ واد هذا؟ فقالوا: هذا وادي الأزرق، قال: كأني أنظر إلىٰ موسىٰ ـ عليه السلام ـ هابطاً من الثَّنِيَّة، وله جُؤار إلىٰ الله بالتلبية، ثم أتىٰ على ثَنِيَّة هَرْشَىٰ، فقال: أيُّ ثَنِيَّة هذه؟ قالوا: ثَنِيَّة هَرْشَىٰ، قال: كأني أنظر إلىٰ يونس بن متىٰ ـ عليه السلام ـ علىٰ ناقة حمراء جَعْدَة، عليه جبة من صوف، خُطَام ناقته خُلْبَة، وهو يلبي»[1]، وقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليُهِلَّن ابن مريم بفَجِّ الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليَثْنِيَنَّهُمَا»[2]، وما روي عنه ﷺ أنه قال: «في مسجد الخيف قبر سبعين نبياً»[3].

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٦٦، وثَنِيَّة هَرْشَىٰ: جبل علىٰ طريق الشام والمدينة قريب من الجحفة، والجُؤار: رفع الصوت، و الناقة الجَعْدَة: كثيرة اللحم، والخُطام: حبل يجعل في أنف الناقة لتقاد به، والخُلْبَة: الليف، انظر: شرح صحيح مسلم للنووي: ٢/ ٢٢٩.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢٥٢، وفَجِّ الروحاء: مكان بين مكة والمدينة، كان طريق رسول الله ﷺ عام الفتح، وعام حجة الوداع، وقوله: يَثْنِيَنَّهما بفتح الياء في أوله، أي: يقرن بين الحج والعمرة، انظر: شرح مسلم للنووي: ٨/ ٢٣٤.

(٣) المعجم الكبير للطبراني، رقم: ١٣٥٢٥، مختصر زوائد البزار، رقم: ٨١٣، وقال ابن حجر إسناده صحيح، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٩٧: رواه البزار، ورجاله ثقات، وذكر البوصيري في إتحاف السادة المهرة، رقم: ١٠٩٣ بأن إسناده صحيح، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم: ٤٠٢٠.

أما الشعائر والأعمال التي بان فيها تَعَمُّده ﷺ مخالفة المشركين فكثيرة، من أبرزها:

التلبية: إذ كان المشركون يضمنونها الشرك بالله، ويقولون فيها: «إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك»، فوحَّد النبي ﷺ فيها ربه، ونبذ الشرك وتبرأ منه، وأفرد الله ـ تعالىٰ ـ بالعبادة(١).

ومنها: وقوفه ﷺ مع الناس بعرفة، ومخالفته لكفار قريش الذين كانوا يقفون في مزدلفة، ويقولون: لا نفيض إلا من الحرم(٢).

ومنها: إفاضته ﷺ من عرفة بعد مغيب الشمس، ومن مزدلفة قبل طلوعها، مخالفاً هدي المشركين الذين كانوا يفيضون من عرفة قبل المغيب، ومن مزدلفة بعد الشروق، كما جاء في حديث المِسْوَر بن مخرمة ـ رضي الله عنه ـ قال: «خطبنا رسول الله ﷺ بعرفة، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: أما بعد: فإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون من ههنا عند غروب الشمس، حين تكون الشمس علىٰ رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال علىٰ رؤوسها، فهَدْيُنا مخالف لهديهم. وكانوا يدفعون من المشعر الحرام عند طلوع الشمس علىٰ رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال علىٰ رؤوسها، فهَدْيُنا مخالف لهديهم»(٣)، وحديث عمرو بن ميمون، قال:

---

(١) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١١٨٥.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٦٥، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٩.

(٣) السنن الكبرىٰ للبيهقي: ٥/ ١٢٥، المستدرك للحاكم: ٢/ ٣٠٤، وقال صحيح علىٰ شرط=

«حججنا مع عمر بن الخطاب، فلما أردنا أن نفيض من المزدلفة، قال: إن المشركين كانوا يقولون: أَشْرِقْ ثَبير كيما نُغير، وكانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس، فخالفهم رسول الله ﷺ، فأفاض قبل طلوع الشمس»[١].

ومنها: إعماره ﷺ لعائشة - رضي الله عنها - بعد الحج، مخالفة للمشركين الذين كانوا لا يرون حل العمرة إلا إذا دخل صفر، كما جاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «والله ما أعمر رسول الله ﷺ عائشة في ذي الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك، فإن هذا الحي من قريش ومن دان دينهم كانوا يقولون: إذا عفا الوَبَر، وبرأ الدَّبَر، ودخل صفر، فقد حلَّت العمرة لمن اعتمر، فكانوا يُحَرِّمُون العمرة حتى ينسلخ ذو الحجة والمحرم»[٢].

ومنها: قصده ﷺ مراغمة المشركين بإظهار شعائر الإسلام في الأماكن

= الشيخين ووافقه الذهبي، واللفظ له، المعجم الكبير للطبراني: ٢٠/ ٢٤، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/ ٢٥٥: رجاله رجال الصحيح، وانظر نحواً منه عند: ابن خزيمة، رقم: ٢٨٣٨، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، وهو حديث حسن.

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٨٤، سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٢، واللفظ له، وثَبير: جبل معروف على يسار الذاهب إلى منى، وهو أعظم جبال مكة، ونغير: أي نسرع العَدْو، والمعنى: لتطلع عليك الشمس كيما نسرع في الدفع للنحر، انظر: فتح الباري: ٣/ ٥٣١.

(٢) سنن أبي داود، رقم: ١٩٨٧، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٧٥٠، ومعنى عفا الوَبَر: أي كثر وبر الإبل الذي حلق بالرحال أثناء السفر عليها للحج، ومعنى برأ الدَّبَر: تعافى ما كان يحصل بظهور الإبل من جرح ونحوه؛ نتيجة الحمل عليها ومشقة السفر، انظر: فتح الباري لابن حجر: ٣/ ٤٢٦.

التي أظهروا بها الكفر والعداوة لله ورسوله ﷺ، وذلك حين قال ﷺ بمنىً: «نحن نازلون غداً بخَيْف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر - يعني ذلك المحصَّب -، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب - أو بني المطلب - أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ»[1]، فلم يبرم الله لهم أمراً، بل كبتهم وردَّهم خائبين، فنصر نبيه ﷺ، وأعلى كلمته، وأتم دينه القويم، قال ابن القيم: «وهذه كانت عادته صلوات الله وسلامه عليه، أن يقيم شعار التوحيد في مواضع شعائر الكفر، كما أمر النبي ﷺ أن يُبْنَى مسجد الطائف موضع اللات والعزى»[2].

ولم تقتصر المخالفة على فعله ﷺ بل أمر أصحابه - رضي الله عنهم - بها حين لا يتأتى له ذلك، كأمره ﷺ في الإحرام لمن لم يكن قرشياً بمخالفة قريش فيما ابتدعته أن لا يطوف بالبيت أحد ممن يقدم عليهم من غيرهم إلا في ثياب أحدهم، فإن لم يجد طاف عرياناً[3]، إذ أمر ﷺ في العام التاسع من الهجرة أن يؤذَّن في الناس بالحج: «ألا يطوف بالبيت عريان»[4]. وكأمره ﷺ لأصحابه ممن لم يسق الهدي بالتمتع؛ ليكون

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٥٩٠.

(٢) زاد المعاد: ٢/ ١٩٤-١٩٥، وانظر: السيرة النبوية لابن كثير: ٤/٤٠٨.

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر: ٣/ ٥٦٥.

(٤) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٢٢.

نسكهم مخالفاً للمشركين الذين كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور [١]. وكأمره ﷺ للأنصار - رضي الله عنهم - بالسعي بين الصفا والمروة إذ قال ﷺ: «اسعوا؛ فإن الله كتب عليكم السعي»[٢]، مخالفاً في ذلك ما كانوا عليه في الجاهلية - حين يتنسكون لأصنامهم - أنه لا يحل لهم السعي بينهما، كما بينت ذلك عائشة - رضي الله عنها - لعروة ابن الزبير حين قال لها: «ما أرىٰ علي جناحاً أن لا أتطوف بين الصفا والمروة. قالت: لِمَ؟ قلت: لأن الله - عز وجل - يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]. فقالت: لو كان كما تقول لكان: فلا جناح عليه أن لا يطَّوف بهما، إنما أنزل هذا في أناس من الأنصار كانوا إذا أَهَلُّوا، أَهَلُّوا لمناة في الجاهلية، فلا يحل لهم أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما قدموا مع النبي ﷺ للحج ذكروا ذلك له، فأنزل الله - تعالىٰ - هذه الآية، فلعمري ما أتم الله حجَّ من لم يطف بين الصفا والمروة»[٣].

ولذا قال ابن القيم - رحمه الله - بأن «الشريعة قد استقرت - ولا سيما في المناسك - علىٰ قصد مخالفة المشركين»[٤].

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٧٢٣٠.
(٢) صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٧٦٤، وهو حديث صحيح.
(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٦٤٣، صحيح مسلم، رقم: ١٢٧٧، واللفظ له.
(٤) حاشية ابن القيم علىٰ سنن أبي داود: ٥/١٤٦.

فبشرى ثم أخرى لمن تأسى بالنبي ﷺ في هذا الهدي الكريم، فاتقى الوقوع في شيء من دين المشركين، وتعمد - في حياته كلها - مخالفتهم فيما هو من خصائصهم؛ لأن «من تشبه بقوم فهو منهم»[١]، و «من أحب قوماً حشر معهم»[٢].

٤- كثرة التضرع والمناجاة والدعاء:

للدعاء منزلة رفيعة إذ هو «إظهار غاية التذلل، والافتقار إلى الله، والاستكانة له»[٣]، ولذا جعل النبي ﷺ العبادة الحقة ليست غير الدعاء، فقال: «الدعاء هو العبادة»[٤]، أي: معظمها وركنها الأكبر؛ لدلالته على الإقبال على الله، والإعراض عما سواه[٥]، وأخبر ﷺ بأن «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»[٦].

---

(١) سنن أبي داود، رقم: ٤٠٣١، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٤٠١: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٣/ ١٩ جازماً به بلا سند، ويشهد له حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - عند البخاري، رقم: ٦١٦٩، ولفظه: «المرء مع من أحب»، وحديث أنس - رضي الله عنه - عنده أيضا، رقم: ٣٦٨٨، ولفظه: «أنت مع من أحببت».

(٣) فتح الباري لابن حجر: ١١/ ٩٨.

(٤) جامع الترمذي، رقم: ٢٩٦٩، وقال حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٥٩٠.

(٥) انظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري: ٩/ ٢٢٠، عون المعبود للعظيم آبادي: ٤/ ٣٥٢.

(٦) صحيح ابن حبان، رقم: ٨٧٠، وإسناده حسن.

وفي الحج كان للنبي ﷺ منه أوفر الحظ والنصيب، فقد دعا ربه في الطواف[١]، وعند الوقوف على الصفا والمروة، وأطال في الدعاء والابتهال يوم عرفة - وهو على ناقته رافعاً يديه إلى صدره، كاستطعام المسكين - منذ أن استقر في مقامه الذي وقف فيه، من لدن الزوال بعد الصلاة إلى أن غربت الشمس، وفي مزدلفة في المشعر الحرام أطال في التضرع والمناجاة منذ أن صلى الفجر في أول الوقت إلى أن أسفر جداً قبل أن تطلع الشمس[٢]، وفي أيام التشريق بعد رمي الجمرتين الأولين كان ﷺ يستقبل القبلة، ويقوم قياماً طويلاً يدعو ويرفع يديه[٣]، قال ابن القيم: «بقدر سورة البقرة»[٤].

هذا شيء مما نقل عنه في دعاء المسألة، أما دعاء الثناء والذكر فلم يفارقه ﷺ منذ أن خرج من المدينة إلى أن عاد إليها، إذ لم يزل ﷺ رطب اللسان بذكر الله، مكثراً من الثناء على الله بما هو أهله، من تلبية وتكبير

(١) انظر: سنن أبي داود، رقم: ١٨٩٢، وحسن الحديث الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٦٦٦.

(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧٥١.

(٤) زاد المعاد: ٢/ ٢٨٥، ولعل مستنده في ذلك فعل ابن عمر - رضي الله عنهما - الذي أورده البيهقي في السنن: ٥/ ١٤٩ قال: عن وبرة قال: «قام ابن عمر حين رمى الجمرة عن يسارها، نحو ما لو شئت قرأت سورة البقرة»، وقال البيهقي: وروينا عن أبي مِجْلَز في حزر قيام ابن عمر قال: «وكان قدر قراءة سورة يوسف»، وعن ابن عباس: «أنه كان يقوم بقدر قراءة سورة من المئين».

وتهليل وتسبيح وتحميد، راكباً وماشياً، وفي جميع أحواله ﷺ، كما هو جلي لمن قرأ صفة حجه ﷺ، وتتبع أحواله فيه[١].

ومن الأهمية بمكان التنبيه على أن المنقول من دعائه ﷺ وتضرعه وثنائه على ربه في الحج قليل جداً بالنسبة لما لم ينقل؛ إذ الأصل أن ذلك سرٌّ بين العبد وربه، وكل أحد يناجي ربه بما هو محتاج إليه، وإنما جهر ﷺ بما جهر به حين كان يريد تأسي أمته به، كما يدل عليه حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ قال، «ثم قرأ: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾ [البقرة: ١٢٥]، ورفع صوته يُسْمِع الناس»[٢]، وإلا فإن ذكر الله من غايات الحج ومقاصده العظام كما يُلْمَح ذلك من قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ**﴾ [البقرة: ١٩٩ ـ ٢٠٣]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ**

---

(١) انظر في ذلك على سبيل المثال الأحاديث التالية: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٤، ١٥٥٠، ١٧٥٠، ١٧٥١، ١٧٩٧، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، جامع الترمذي، رقم: ٣٥٨٥، وقال: حسن غريب، وحسن الحديث الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٨٣٧.

(٢) سنن النسائي، رقم: ٢٩٦١، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم: ٢٧٧١.

﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨]، بل إن أعمال الحج وشعائره إنما شرعت لذكر الله - تعالىٰ -، كما يدل عليه حديث عائشة - رضي الله عنها - مرفوعاً: «إنما جعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله»(١)، وحديث نُبَيْشَةَ الهذلي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله»(٢).

والملاحظ أن الأدعية المنقولة عنه ﷺ في الحج من الأدعية الجامعة كقوله ﷺ بين الركنين اليمانيين: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»(٣).

ولذا فالموفق من تأسىٰ به ﷺ في ذلك، فأكثر التضرع والابتهال والمناجاة، وأظهر الافتقار إلىٰ الله - تعالىٰ - والاحتياج إليه، وخضع لمولاه وانكسر بين يديه، ولزم الذكر بحضور قلب، والسؤال بدعاء جامع، دون أن يضيع وقته فيما لا ينفع، أو يشقق الأمور فيما يطلب(٤).

---

(١) جامع الترمذي، رقم: ٩٠٢، وقال: حسن صحيح، المستدرك للحاكم: ١/ ٤٥٩، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير، رقم: ٢٥٨٩ بالصحة، وحسنه الأرناؤوط في جامع الأصول رقم: ١٥٠٥، وخالفهم الألباني فضعفه في ضعيف الجامع، رقم: ٢٠٥٦.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١١٤١.

(٣) سنن أبي داود، رقم: ١٨٩٢، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٦٦٦.

(٤) انظر في عدم تشقيق الدعاء: أثراً لأنس - رضي الله عنه - عند ابن كثير في التفسير: ١/ ٥٥٩.

٥ـ الغضب لله والتوقف عند حدوده:

غضب العبد لله ـ تعالىٰ ـ، وتوقفه عند حدوده ـ عز وجل ـ: غاية التقوىٰ، ودليل صدق الإيمان، وعلامة كمال العبودية، وقد كان النبي ﷺ أتقىٰ الناس لربه، وأغضبهم له، وأعلمهم بحدوده، وقد لاح ذلك في الحج عبر مشاهد شتىٰ، من أوضحها:

مكثه ﷺ بذي الحليفة يوماً كاملاً، ليصلي فيه وينتظر من يريد اللحاق به، امتثالاً لأمر ربه ـ عز وجل ـ، كما يدل علىٰ ذلك حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «سمعت النبي ﷺ بوادي العقيق[1] يقول: أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صلِّ في هذا الوادي المبارك، وقُلْ: عمرة في حجة»[2]، وذلك أنه ﷺ خرج ـ علىٰ المختار ـ من المدينة يوم السبت بعد أن صلىٰ الظهر فيها أربعاً، ولم يمض من ذي الحليفة إلا يوم الأحد بعد أن صلىٰ الظهر فيها ركعتين[3]، قال ابن كثير: «الظاهر أن أمره ـ عليه السلام ـ بالصلاة في وادي العقيق هو أمر بالإقامة به إلىٰ أن يصلي

(١) يسمىٰ بوادي العقيق: عدة أودية حول المدينة، والمراد به هنا الذي في بطن ذي الحليفة، والذي يبعد عن المدينة أربعة أميال، انظر: معجم البلدان للحموي: ٤/ ١٣٩، فتح الباري لابن حجر: ٣/ ٣٩٢، ويشهد لذلك حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ: «أنه رئي وهو في مُعَرَّس بذي الحليفة ببطن الوادي، قيل له: إنك ببطحاء مباركة»، أخرجه البخاري، رقم: ١٥٣٦.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٥٣٤.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٢١٥ـ٢١٨، زاد المعاد لابن القيم: ٢/ ١٠٢ـ١٠٦.

الظهر؛ لأن الأمر إنما جاءه في الليل، وأخبرهم بعد صلاة الصبح، فلم يبق إلا صلاة الظهر، فأمر أن يصليها هنالك»[١]، وفي ذلك التوقف والانتظار من المشقة الظاهرة علىٰ مسافر معه عشرات الآلاف من البشر ما هو جلي.

ومنها: ما حصل عندما لم يحل ﷺ من إحرامه؛ مراعاة لأصحابه؛ لأنه ساق الهدي، وذلك أنه ﷺ أمر من لم يسق الهدي بأن يُحِلُّوا إحرامهم ويجعلوا حجهم عمرة، فتأخر القوم في ذلك ظناً منهم أنه لم يعزم عليهم، وإنما أبان لهم الجواز، وقال بعضهم - معبِّراً عن عدم رغبته في الحل من الإحرام -: «نأتي عرفة تقطر مذاكيرنا المنيّ!»، فقام النبي ﷺ عند ذلك من بينهم مغضباً لله أن لا يستجاب له، وهو رسول الله، ودخل علىٰ عائشة - رضي الله عنها - وهو كذلك، فقالت له: «من أغضبك يا رسول الله، أدخله الله النار؟! قال: أو ما شعرت أني أمرت الناس بأمر؛ فإذا هم يترددون، ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي معي حتىٰ أشتريه، ثم أُحِل كما حَلُّوا»[٢]، ثم خرج ﷺ فقام فيهم، فقال: «قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم، ولولا هديي لحللت كما تُحِلُّون؛ فحِلُّوا»[٣]، فاستجاب الناس له ﷺ، وسمعوا وأطاعوا.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٢٢٢.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢١١.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٧٣٦٧، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٦.

ومنها: قوله ﷺ عن زوجه صفية - رضي الله عنها - حين حاضت ليلة النفر، وقبل أن يعلم أنها طافت طواف الإفاضة يوم النحر -: «ما أراها إلا حابستكم»(١) مع ما في ذلك من الحرج الشديد له أمام الخلق؛ إذ كيف يُحبَس بسببها الناس عن النفير؟!.

فاقتدِ - يا عبد الله - بخير الورىٰ ﷺ، وكن ممن يغضب لربه إذا انتهكت محارمه، ويقف عند حدود مولاه، ولا يتجاوز شيئاً من أوامره ونواهيه، واحذر من مخالفة ذلك؛ فإنه من أسباب الهلكة، والإصابة بالفتنة، كما قال - تعالىٰ -: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وامتثل في حياتك كلها - إذا أردت النجاة - قوله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم؛ فإنما أهلك الذين من قبلكم: كثرة مسائلهم، واختلافهم علىٰ أنبيائهم»(٢)، والزم ما أوصاك به العارف حين قال لك: «إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا. فأصغ لها سمعك؛ فإنه خير تؤمر به أو شر تُصْرف عنه»(٣)، وإياك أن تحيد عن ذلك؛ فإنه من أسباب الشقاوة، وحرمان السعادة.

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٧٧٢.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٧٢٨٨، صحيح مسلم، رقم: ١٣٣٧، واللفظ له.

(٣) سنن سعيد بن منصور، رقم: ٨٤٨، والأثر من قول: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

٦ـ الخشوع والسكينة:

يُدْرَك حضور القلب وخشوعه بسكون الجوارح ووقارها؛ إذ الظاهر عنوان الباطن [١]، وقد جمع النبي ﷺ في حجه بين الأمرين فكان حاضر القلب، غير متشاغل بشيء عن نسكه، خاضعاً لربه فيه، ذليلاً منكسراً بين يدي مولاه، باكياً ساكب العبرات، مكثراً من التضرع والمناجاة، مع إطالة للقيام ورفع لليدين أثناء ذلك[٢]، **يدل لذلك نصوص عديدة، منها**: قول جابر ـ رضي الله عنه ـ واصفاً حال النبي ﷺ في الطواف: «فبدأ بالحَجَر فاستلمه، وفاضت عيناه بالبكاء، ثم رَمَلَ ثلاثاً ومشىٰ أربعاً حتىٰ فرغ، فلما فرغ قَبَّل الحجر، ووضع يديه عليه، ومسح بهما وجهه»[٣].

وما رواه سالم عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه ﷺ كان يرمي الجمرة الأولىٰ ثم يتقدم فيُسْهِل، فيقوم قياماً طويلاً مستقبل القبلة، فيدعو رافعاً يديه، ثم يرمي الجمرة الوسطىٰ فيأخذ ذات اليسار مما يلي الوادي، فيقوم قياماً طويلاً مستقبل القبلة رافعاً يديه يدعو، ثم يرمي الجمرة ذات العقبة من بطن الوادي، ولا يقف عندها، وكان ابن عمر ـ رضي الله

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر: ٢/ ٢٦٤.

(٢) النصوص الدالة علىٰ ذلك كثيرة، انظر علىٰ سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ١٧٥١، صحيح مسلم، رقم ١٢١٨.

(٣) السنن الكبرىٰ للبيهقي: ٥/ ٧٤، وقال ابن كثير في السيرة النبوية: ٤ / ٣١٧: وهذا إسناد جيد.

عنهما - يفعله، ويقول: «هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل»[(١)].

كما كان ﷺ خاشع الجوارح، يسير سيراً ليناً بسكينة ووقار، ويؤدي مناسكه بتؤدة واطمئنان، يدل لذلك قول جابر - رضي الله عنه -: «أفاض رسول الله ﷺ وعليه السكينة»[(٢)]، وحديث الفضل بن العباس - رضي الله عنهما - قال: «فلما أفاض سار على هِيْنَتِه حتى أتى جَمْعاً»[(٣)]، وحديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - «أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً وصوتاً للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: «أيها الناس، عليكم بالسكينة؛ فإن البر ليس بالإيضاع»[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٧٥١، ١٧٥٣، وقال ابن القيم في الزاد: ٢/ ٢٨٦ مبيناً سبب عدم وقوفه ﷺ بعد جمرة العقبة: «فلما أكمل الرمي، رجع من فوره ولم يقف عندها، فقيل: لضيق المكان بالجبل. وقيل - وهو أصح -: إن دعاءه كان في نفس العبادة قبل الفراغ منها، فلما رمى جمرة العقبة، فرغ الرمي، والدعاء في صلب العبادة قبل الفراغ منها أفضل منه بعد الفراغ منها، وهذا كما كانت سنته في دعائه في الصلاة، إذ كان يدعو في صلبها، فأما بعد الفراغ منها، فلم يثبت عنه أنه كان يعتاد الدعاء، ومن روى عنه ذلك فقد غلط عليه».

(٢) سنن النسائي، رقم: ٣٠٢٤، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم: ٢٨٢٧.

(٣) المسند لأحمد، رقم: ١٨١٦، وإسناده صحيح. وجَمْع: مزدلفة.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ١٦٧١، ومعنى الإيضاع: السير السريع، ومن هذا الحديث أخذ عمر ابن عبد العزيز قوله - لما خطب الناس بعرفة -: «ليس السابق من سبق بعيره وفرسه، ولكن السابق من غفر له»، انظر: فتح الباري: ٣/ ٥٢٢.

فـخُـذ الهـدي المنجي عن النبي ﷺ، والبس رداء السكينة وثوب الوقار، وأدِّ نسكك بهدوء بال، واستحضار لمعنىٰ ما تقول وتفعل؛ فإن ذلك مما يورثك الحكمة، ويحول بينك وبين الباطل، وأرح نفسك بحجك، وإياك وفعل الجاهلين الذين لا هَمَّ لأحدهم إلا إنهاء النُّسك ومفارقته، وكأنهم ـ بلسان الحال ـ يقولون: ربنا أرحنا منه، لا، أرحنا به.

٧ ـ الاستكثار من الخير ومباشرته:

حث الله عباده علىٰ التزود من التقوىٰ، والتسابق في الخيرات، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقد كان هذا هدي النبي ﷺ في الحج وديدنه فيه، ومن المظاهر الدالة على ذلك:

حرصه ﷺ على المجيء بمستحبات النُّسك: كالاغتسال للإحرام[١]، والتطيب عند الإهلال به، وعند الخروج منه[٢]، وإشعار الهدي وتقليده[٣]، والإكثار من التلبية والجهر بها حتىٰ رمي جمرة العقبة[٤]،

(١) انظر: جامع الترمذي، رقم: ٨٣٠، وقال عن الحديث: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٦٤.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٣٩.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٥، ١٦٩٧.

(٤) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٤، ١٥٧٣، صحيح مسلم، رقم: ١١٨٤.

وبدء البيت بالطواف[١]، والرمل فيه[٢]، والاستلام للركنين[٣]، وصلاة ركعتي الطواف خلف المقام[٤]، والدعاء على الصفا والمروة، والسرعة الشديدة في بطن الوادي[٥]، والذكر عند استلام الركنين ورمي الجمار[٦]، وغيرها من السنن كثير.

ومنها: تأخره ﷺ في الإفاضة من مزدلفة إلى أن أسفر جداً قبيل طلوع الشمس، مع أنه ﷺ كان يسعه الإفاضة قبل؛ لوجود الضعفة من أهله معه[٧].

ومنها: إهداؤه ﷺ مائة بدنة[٨]، مع أنه كان يكفيه عن كل ذلك سُبع بدنة، أو بقرة، أو واحدة من الغنم[٩].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦١٥.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٦١٦.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٠٩، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، المسند لأحمد، رقم: ٤٦٨٦، وإسناده صحيح.

(٤) انظر: جامع الترمذي، رقم: ٨٥٦ وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٧٩.

(٥) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، ١٢٦١.

(٦) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧٥١، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٧) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٨٠، صحيح مسلم، رقم: ١٢٩٣.

(٨) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧١٨.

(٩) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٨٨، حجة الوداع لابن حزم: ١٣٩، زاد المعاد لابن القيم: ٢/٢٢١.

والملاحظ أن النبي ﷺ قد باشر جميع المناسك بنفسه، ولم يُنِب أحداً عنه فيما تدخله النيابة إلا عند الحاجة إلى ذلك - وفي أمر الهدي خاصة - حين أناب ﷺ علياً - رضي الله عنه - بأن ينحر عنه باقي هديه، بعد أن كان ﷺ قد نحر منها بيده الشريفة ثلاثاً وستين بدنة[١]، وقد جاء أنه ﷺ أشركه في الهدي معه[٢]، وعليه فليس هناك من إنابة.

ولا يُشكِل على هذا التعميم اتخاذه ﷺ للخدم، واستعانته ببعض أصحابه - رضي الله عنهم - في بعض الأمور: كإشعار بعض الهدي[٣]، وضرب قبة له في نمرة[٤]، والتقاط الحصى له من مزدلفة[٥]، والعناية بدابته واستصلاح ركابه[٦]، ونحو ذلك؛ لأن تلك الأمور إما أنها ليست من أعمال النُّسك أصالة، أو ليست من أعماله المباشرة.

وبالجملة فالمشاهد لمن تأمل حجه ﷺ يجد: سعيه الشديد ورغبته

(١) انظر: سنن ابن ماجة رقم: ٣٠٧٤، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٩٤.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٢٥٠٦، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) انظر: صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٦٠٩، وإسناده صحيح، السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٢٢٨.

(٤) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٥) انظر: سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٩، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥٥.

(٦) انظر: المسند لأحمد، رقم: ٢٧٢٩٠ من حديث معمر بن عبد الله - رضي الله عنه -، وأفاد الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/ ٢٦١ بأن فيه من لم يوثق ولم يجرح.

الأكيدة في أداء النُّسك على وجهه الأكمل، وإتيان الفاضل من الأعمال، وعدم فعل المفضول إلا عند وجود مصلحة راجحة في ذلك، كطوافه بالبيت، وسعيه بين الصفا والمروة راكباً[١]، واستلامه الحجر الأسود بمحجن[٢] وذلك عندما غشاه الناس، وكان يرغب ﷺ في رؤية الناس له؛ ليسألوه ويأخذوا عنه.

فاعقد العزم على المسابقة في الموسم بفعل الخيرات، والاستكثار من القربات؛ فإنك في خير أيام الدنيا، وفي موسم يُتقَى الله فيه ويُبَر، ويُذكَر فيه ويُناجَى، وهو - سبحانه - لا يناله منك إلا تقواك له[٣]، ولا ينظر منك إلى الصورة والمال، ولكن إلى القلب والعمل[٤]، فشمِّر عن ساعد الجد، وكن ذا همة عالية، واحذر الفتور والتقاعس؛ فإن العمر يمضي، والأيام لا تعود، وتذكَّر بأن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، فمن عمل نجا وأفلح، ومن ضيَّع هلك وسقط، والأمر كما قال ﷺ: «ومن بطَّأ به عمله لم يُسرع به نسبه»[٥].

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٠٨، المسند لأحمد، رقم: ٣٤٩٢، ١٤٤١٥، وإسناده صحيح.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧١٥، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، والمحجن: عصا منحنية الرأس، انظر: النهاية لابن الأثير: ١/ ٣٤٧.

(٣) كما قال - تعالى -: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

(٤) انظر: حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - في صحيح مسلم، رقم: ٢٥٦٤، ولفظه: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

(٥) صحيح مسلم، رقم: ٢٦٩٩.

٨- التوازن والاعتدال:

خير الأمور الوسط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وذلك ما جاء به الشرع الحنيف؛ إذ قال ﷺ: «عليكم هدياً قاصداً - ثلاث مرات -؛ فإنه من يشادَّ الدين يغلبه»[1]، وقال ﷺ: «القصدَ القصدَ تبلغوا»[2].

وفي الحج كان من أبرز أحوال المصطفى ﷺ، وما تجلى من خُلُقه: التوازن والاعتدال، وكراهية الإفراط والتفريط، ولعل الذي يعنينا من ذلك في حاله مع ربه - عز وجل - أمران:

الأول: اعتداله ﷺ وموازنته بين العناية بنفسه من خلال قوة صلته بربه - سبحانه - من جهة[3]، وبين التعليم لأمته وقيادتها، والرعاية لزوجاته، والحنو على أهل بيته من جهة أخرى[4].

الثاني: اعتداله ﷺ وموازنته بين كل من حقوق روحه وجسده، إذ في ذلك الجو الإيماني المهيب الذي قد يدفع الكثيرين إلى التفريط في حق الجسد والإفراط في حق الروح، نجده ﷺ معتنياً بجسده غاية العناية،

---

(١) المسند لأحمد، رقم: ١٩٧٨٦، وإسناده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٦٤٦٣.

(٣) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ١٧٥١، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٤) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ٣٠٥، ١٥٥٦، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

إذ صعد يوم التروية إلى منى ليقرب من عرفة[١]، ونام ليلة عرفة ومزدلفة[٢]، وأفطر يوم عرفة[٣]، واستظل فيه بقبة من شعر ضُربت له قبل[٤]، وترك ليلةَ جَمْع صلاة النافلة قبل الصلاتين وإثرهما، ونام تلك الليلة حتى أصبح دون أن يحييها[٥]، وركب في تنقلاته بين المشاعر[٦] وأثناء قيامه ببعض أعمال الحج كالطواف والسعي ورمي جمرة العقبة[٧]، واتخذ ﷺ مَنْ يخدمه ويقوم بأمره[٨]. . . ونحو ذلك من الأمور التي ترفق بالجسد، وتمكنه من التقوِّي على فعل المقصود الأعظم هناك، وهو: الدعاء والمناجاة، وأداء النسك بحضور قلب وإعمال فكر، وخشوع واطمئنان.

ولعل من أجلى ما يدل على هذا التوازن والاعتدال حديث أم الحصين - رضي الله عنها - قالت: «حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع،

(١) انظر: سنن أبي داود، رقم: ١٩١١، وصحح الحديث الألباني في صحيح أبي داود، رقم: ١٦٨٢، سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٠٤، ٣٠٧٤، وصحح الحديثين الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٣٣، ٢٤٩٤.

(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٥٨.

(٤) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٥) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٧٣، زاد المعاد لابن القيم: ٢/ ٢٤٧.

(٦) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٦٦، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٧) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٠٧، صحيح مسلم، رقم: ١٢٧٣، ١٢٩٧.

(٨) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٣١٣، المسند لأحمد، رقم: ٢٧٢٩٠.

فرأيته حين رمىٰ جمرة العقبة وانصرف وهو علىٰ راحلته، ومعه بلال وأسامة، أحدهما يقود به راحلته، والآخر رافع ثوبه علىٰ رأس رسول الله ﷺ من الشمس، قالت: فقال رسول الله ﷺ قولاً كثيراً، ثم سمعته يقول: إن أُمِّر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله تعالىٰ، فاسمعوا له وأطيعوا»[١]، وقد نقلت - رضي الله عنها - في هذا الحديث عن النبي ﷺ أموراً مختلفة، كالرمي، والركوب، والاستظلال، والسير بوقار، وخدمة بعض أصحابه - رضي الله عنهم - له، وتعليمه ﷺ الناس، ووعظه إياهم.

فإن كنت تريد البلوغ، فالزم سنَّة من وجَّهك ﷺ فقال لك وللسائرين علىٰ الطريق معك: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[٢]، ولا ترغب عنها فتهلك، فقد حذَّرك ﷺ فقال لك: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٣]، فأوغل في دين الله برفق، ودع التكلف، وعليك بالقصد والاعتدال، ولا تُبَغِّضْ عبادة الله - تعالىٰ - إلىٰ نفسك، «فإن المُنْبَتَّ لا يقطع سفراً، ولا يُبقِي ظهراً»[٤].

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢٩٨.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٣٩.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٥٠٦٣.

(٤) شعب الإيمان للبيهقي، رقم: ٣٨٨٥، وقد روي عن جابر - رضي الله عنه - موصولاً ومرسلاً، والراجح إرساله، انظر: كشف الخفاء للعجلوني، رقم: ٢٣٣٩.

٩ـ الزهد في الدنيا:

كان النبي ﷺ متعلق القلب برضى ربه ـ عز وجل ـ، معرضاً عما لا ينفع في الآخرة، زاهداً في الدنيا مع قدرته عليها، إذا حصلت له أنفقها هكذا وهكذا في عباد الله، دون أن يدخر لنفسه أو لأهل بيته شيئاً منها، وصفه ﷺ الواصف فقال: «أمَّا هو فكان أزهد الناس بالدنيا»[(١)]، وصور زهده في الدنيا تترى، تكاد لا تُنهى، ومن ذلك:

أنه ﷺ كان يدعو ربه قائلا: «اللهم ارزق آل محمد قوتاً»[(٢)]، وفي رواية: «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً»[(٣)].

ومنها: أنه ﷺ كان يظل اليوم يلتوي من الجوع فلا يجد من التمر الرديء ما يملأ به بطنه، كما قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي، ما يجد دقلاً يملأ به بطنه»[(٤)].

ومنها: أنه ﷺ مضى لسبيله، ولم يشبع هو وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز بُرٍّ، كما في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ما شبع رسول الله

---

(١) المسند لأحمد، رقم: ١٧٧٧٣، وهو حديث صحيح.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٦٤٦٠.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٠٥٥.

(٤) صحيح مسلم، رقم: ٢٩٧٨، والدقل: رديء التمر ويابسه، انظر: النهاية لابن الأثير: ١٢٧/٢.

ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز بُرٍّ حتى مضى لسبيله»[١]، وفي رواية: «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز بُرٍّ مأدوم ثلاثاً»[٢].

وقد تجلى في الحج تعلقه ﷺ بالآخرة حين وقف بعرفة فقال: «لبيك اللهم لبيك، إنما الخير خير الآخرة»[٣]، وفي رواية: «لبيك، إن العيش عيش الآخرة»[٤].

أما مظاهر زهده ﷺ التي تبدت للناظرين أثناء الموسم فكثيرة تكاد لا تُحصى، ومن أبرزها:

أنه ﷺ حج على رحل رثٍّ وقطيفة تساوي أربعة دراهم أو لا تساوي[٥]، قال ابن القيم: «وكان حجه على رحل، لا في مِحْمَل، ولا هَوْدَج، ولا عمَّارية»[٦]، وقد تذكَّر صاحبهُ ابن عمر - رضي الله عنهما - بعد سنين حاله ﷺ تلك، حين مرت به رفقة يمانية، ورِحَالُهم الأُدُم، وخُطُم إبلهم

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ٢٩٧٠.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٥٤٣٨.

(٣) صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٨٣١، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم: ٥٠٥٨.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٣/ ٤٤٢ موصولا، السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ٤٥ مرسلاً.

(٥) انظر: سنن ابن ماجة، رقم: ٢٨٩٠، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٣٧.

(٦) زاد المعاد: ٢/ ١٦٠، والظاهر أن المحمل والهودج والعمارية: أدوات تجعل فوق الدابة ليسهل على المرء ركوبها.

الخُزُم، فقال: «من أحب أن ينظر إلىٰ أشبه رفقة وردت العام برسول الله ﷺ وأصحابه إذ قدموا في حجة الوداع.. فلينظر إلىٰ هذه الرفقة»(١).

ومنها: أن راحلته ﷺ كانت زاملته التي يحمل عليها متاعه وزاده، ولم تكن له ناقة أخرىٰ خاصة بذلك، كما جاء في حديث ثمامة قال: «حج أنس علىٰ رحل، ولم يكن شحيحاً، وحدَّث أن رسول الله ﷺ حج علىٰ رحل، وكانت زاملته»(٢).

ومنها: إردافه ﷺ علىٰ راحلته أسامة بن زيد-رضي الله عنهما-من عرفة إلىٰ مزدلفة، والفضل بن العباس-رضي الله عنهما-من مزدلفة إلىٰ منىٰ(٣).

---

(١) سنن أبي داود، رقم: ٤١٤٤، وصحح إسناده الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٤٩١، المسند لأحمد، رقم: ٦٠١٦، وإسناده صحيح، واللفظ له، والأدم: جمع اديم، وهو: الجلد المدبوغ، والخطم: جمع خطام، وهو: حبل يجعل في أنف الناقة لتقاد به، والخزم: حلقة من الشعر تجعل في أحد جانبي أنف الناقة، انظر: شرح مسلم للنووي: ٢/ ٢٩٩، عون المعبود للعظيم آبادي: ١٠/ ١١٧، المصباح المنير للفيومي: ١/ ١٦٨.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥١٧، وجاء عند أبي داود، رقم: ١٨١٨ عن أسماء-رضي الله عنها-: «أن زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله ﷺ كانت واحدة»، وفيه عنعنة ابن إسحاق، وإن كان الألباني قد حسنه في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٦٠٢، علىٰ أنه قد ورد من حديثها عند ابن ماجة، رقم: ٢٩٣٣، قالت: «وكانت زمالتنا وزمالة أبي بكر واحدة»، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٧٣، فالله أعلم.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٤.

ومنها: عدم تميزه ﷺ في الموسم عن الناس بشيء، وأعظم ما تجلىٰ فيه ذلك أنه ﷺ «جاء إلىٰ السقاية فاستسقىٰ، فقال العباس: يا فضل، اذهب إلىٰ أمك، فأْتِ رسول الله ﷺ بشراب من عندها، فقال: اسقني، قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه، قال: اسقني، فشرب منه»(١)، وفي رواية أنه ﷺ قال - حين قالوا: نأتيك به من البيت -: «لا حاجة لي فيه، اسقوني مما يشرب منه الناس»(٢).

ومنها: عِظَم هديه ﷺ، إذ قرَّب مائة بدنة(٣)، ومن تعلق قلبه بالدنيا لا يخرج شيئاً فوق الحد الواجب.

ومنها: جمعه ﷺ - كما هو الظاهر - بين الهدي والأضحية(٤) مع أن الهدي يجزئ الحاج عنها.

ومنها: كثرة تصدقه ﷺ وإطعامه للناس، إذ نحر يوم التروية بيده الشريفة سبع بدنات قياماً(٥)، وأمر علياً - رضي الله عنه - يوم النحر أن يقسم بُدْنَه كلها: لحومها وجلودها وجلالها في المساكين(٦).

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٦٣٦.

(٢) المسند لأحمد، رقم: ١٨١٤، وهو حديث صحيح.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧١٨.

(٤) انظر: صحيح مسلم، رقم: ٣١٨٠، حجة الوداع لابن حزم: ١٢٣، ٣٠١، وما بعدها.

(٥) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٥١، سنن أبي داود، رقم: ١٧٩٦.

(٦) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٣١٧، والجلال: ما يجعل على ظهر الدابة لتصان به، انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، مادة: جلل.

ومنها: قسمته ﷺ للصدقة بين الناس، إذ عمد يوم النحر إلىٰ جُزَيْعَة من الغنم فقسمها[١]، وجاءه رجلان في حجته ـ وهو يقسم الصدقة ـ فسألاه منها، فرفع فيهما البصر وخفض، فرآهما جلدين، فقال: «إن شئتما أعطيتكما، ولا حظَّ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»[٢].

ومنها: تواضع طعامه ﷺ إذ حين ذبح أضحيته في حجة الوداع قال لثوبان: «أصلح هذا اللحم»، قال ثوبان: «فأصلحته، فلم يزل يأكل منه حتىٰ بلغ المدينة»، وفي رواية: «فلم أزل أطعمه منها حتىٰ قدم المدينة»[٣].

فإن كان لك قلب تبصر به فاتق الدنيا وزينتها، وإياك أن تكون ابناً لها أو عبداً؛ فإنها دار فناء وهوان وذل، إنها «دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[٤]، ولو كانت دار رضىٰ لاختارها الله ـ تعالىٰ ـ لأوليائه، والصفوة من خلقه، فلا تأمنها، وإياك وفتنتها، فإنما هي متاع الغرور.

---

(١) انظر: صحيح مسلم، رقم: ٣١٨٠، والجزيعة من الغنم: القطعة منها تصغير: جِزْعة بالكسر، وهو القليل من الشيء، انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ١/ ٢٦٩.

(٢) سنن أبي داود، رقم: ١٦٣٣، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٤٣٨.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٩٧٥.

(٤) المسند لأحمد، رقم: ٢٤٤٦٤ من حديث عائشة مرفوعاً، وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٠/ ٢٨٨ بأن رجاله رجال الصحيح غير ذويد، قال: وهو ثقة، وهو في شعب الإيمان للبيهقي، رقم: ١٠٦٣٧، عن ابن مسعود موقوفاً.

هذه بعض المظاهر المضيئة والصور المشرقة من جوانب صلة النبي ﷺ في الحج بربه ،وخضوعه لخالقه ،وانقياده لمولاه ،مع كثرة وظائفه ﷺ وعظم مسؤولياته ،وها هي الفرصة تواتيك ،وسوق القربات وموسم الطاعات يمر عليك، وستقف بين يدي الله ـ تعالى ـ وأنت قد قصَّرت في جنب الله، وتهاونت في أمره، وتكاسلت عن طاعته بل قد تجاوزت حدوده فوقعت في الخطأ والذنب كما يدل على ذلك قوله ﷺ: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[1]، فهلا اقتديت فيه بالنبي ﷺ فكنت من هذا الصنف الخيِّر، فاجتهدت في أن تظهر لله عبوديتك، وتبين له انقيادك: مسابقة في مراضيه، وهروباً عن معاصيه، فتُحصِّل بذلك القرب منه، وتنل به المحبة والرضى، وتحظَ منه بالحفظ والرعاية، كما يدل لذلك قوله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[2].

---

(١) سنن ابن ماجة، رقم: ٤٢٥١، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٣٤٢٨.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٦٥٠٢.

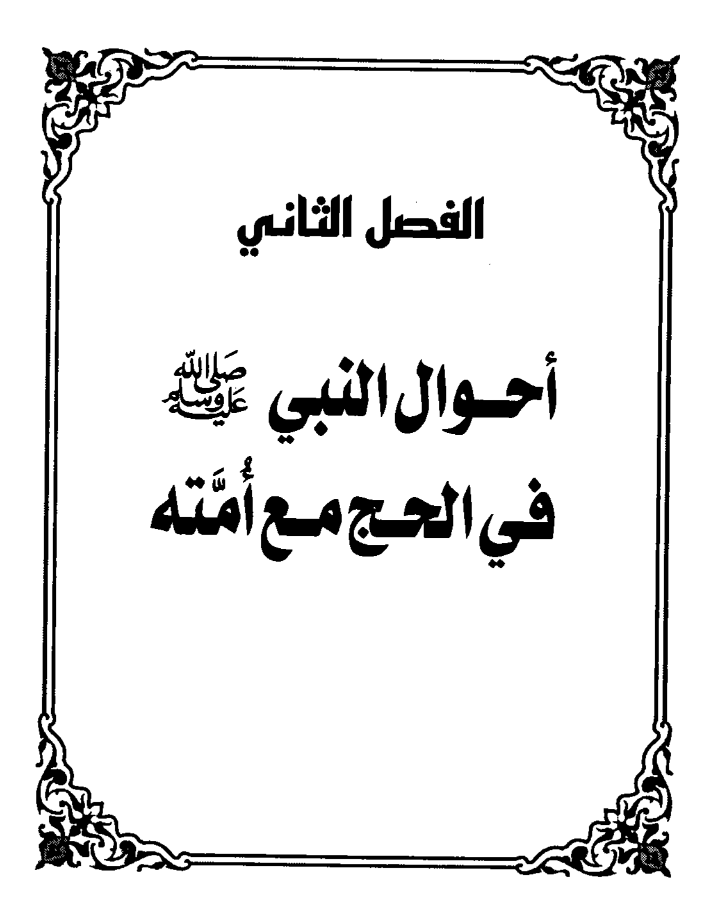

الفصل الثاني

أحوال النبي ﷺ في الحج مع أُمَّته

أحوال النبي ﷺ في الحج مع أُمَّته

عَجَبٌ أمر رسول الله ﷺ في الحج؛ إذ قام بتعليم الناس وقيادتهم في آنٍ واحد، ومع ذلك فما أنت مريد أن ترىٰ شيئاً فعله ﷺ معهم علىٰ خلاف الأَوْلىٰ إلا وأنت عاجز عن ذلك.

وكل أحواله ﷺ والوظائف التي قام بها مع أمته دالة علىٰ عظمته وعلو مرتبته، ولعل من أبرز ذلك:

١ ـ التعليم:

بعث الله رسوله ﷺ «معلماً مُيَسِّراً»[١]، وقد بلغ الغاية في ذلك، كما وصفه الواصف فقال: «ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه»[٢]، ومن تأمل حجَّه وجد أنه هو ذلك المعلم الموصوف بعينه؛ إذ أمر ﷺ بأن يؤذَّن في الناس قبل الحج بأنه ﷺ يريد الحج؛ ليسهل علىٰ من يريد مرافقته السفر معه، ومكث خارج المدينة بذي الحليفة يوماً كاملاً ينتظر من يريد اللحاق به[٣]، فقدم المدينة بشر كثير، ولحقت به أعداد

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٤٧٨.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ٥٣٧. وهو وصف معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٥٥١.

غفيرة كل واحد منها يلتمس أن يأتم به ويأخذ عنه(١)، فاختلط ﷺ بالناس وأشرف لهم وبرز طوال الموسم(٢)، وكان لا يُصرف أحد عنه ولا يُدفع(٣)، ولم يكن حوله ضرب، ولا طرد، ولا قول إليك إليك(٤).

وحرص ﷺ على البلاغ وإقامة الحُجَّة على الخلق فحفزهم على التعلم، وشحذ هممهم، وشدَّ انتباههم إلى ما يقول ويفعل، بتنويع أساليب الخطاب وطرق التعليم، وأمره ﷺ لهم بأخذ المناسك عنه لاحتمال أن تكون حَجَّته الأخيرة(٥)، واتخاذه من يُنْصِّت الناس ويُسْكتهم(٦)، كما في حديث جرير - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع: «استنْصِت الناس» فقال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»(٧)، وكما في حديث بلال - رضي الله

---

(١) انظر: سنن أبي داود، رقم: ١٩٠٥، وصحح الحديث الألباني في صحيح أبي داود، رقم: ١٦٧٦.

(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١١٨٧، ١٢١٨، ١٢٧٣.

(٣) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢٧٤، المسند لأحمد، رقم: ٢٨٤٢، وإسناده حسن.

(٤) انظر: سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٣٥، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٦١, وإليك إليك: ابتعد.

(٥) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢٩٧.

(٦) انظر سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٤، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥٠.

(٧) صحيح البخاري، رقم: ١٢١.

عنه -: «أن النبي ﷺ قال له غداة جَمْع: يا بلال، أَسْكِت الناس أو أَنْصِت الناس...»(١)، ومطالبته إياهم بالشهادة له بالبلاغ؛ إذ مراراً ما خاطبهم - بعد أن يتم تعليمهم -: «ألا هل بلغت؟»(٢)، فيشهد الناس له بذلك قائلين: «نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت»(٣).

ولم يقتصر ﷺ على البلاغ والتعليم بنفسه، بل جعل ﷺ - حين خطب الناس بعرفة - ربيعة بن أمية - رضي الله عنه - يصرخ خلفه ﷺ في الناس يُسْمِعُهم خطبته(٤)، كما اتخذ ﷺ بعرفة أيضاً رجلاً ينادي في الناس يبلِّغ عنه(٥)، وفي منى جعل ﷺ علياً - رضي الله عنه - يعبر عنه، ويردد كلامه، والناس بين قاعد وقائم(٦)، وأرسل الرسل إلى الحجيج في مواضعهم في عرفة ومنى للأمر نفسه(٧).

(١) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٤، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥٠.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧٤١، المسند لأحمد، رقم: ٢٠٦٩٥، وهو حديث صحيح لغيره.

(٣) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨..

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٣٤٢.

(٥) انظر: سنن أبي داود، رقم: ١٩٤٩، وصحح الحديث الألباني في صحيح أبي داود، رقم: ١٧١٧.

(٦) انظر: سنن أبي داود، رقم: ١٩٥٦، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٧٢٣.

(٧) انظر: جامع الترمذي، رقم: ٨٨٣، وقال حسن صحيح، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٧٠٠، المسند لأحمد، رقم: ١٠٦٦٤، وهو حديث صحيح، صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٩٦٠، وإسناده صحيح.

وقد كان ﷺ في أحيان يمزج تعليمه بتلطف ومداعبة، كما في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قَدِمْنَا رسول الله ﷺ أُغَيْلِمَةَ بني عبد المطلب على حُمُرات لنا من جَمْع، فجعل يَلْطَح[1] أفخاذنا، ويقول: أُبَيْنِيَّ لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس»[2].

ولم يقتصر تعليمه على الأصحاء والكبار بل علَّم المرضى ووجَّه الضَعَفَة، ومن ذلك قوله ﷺ لضباعة ـ رضي الله عنها ـ حين قالت: «يا رسول الله، إني أريد الحج وأنا شاكية؟ فقال النبي ﷺ: حجي، واشترطي أن محلي حيث حبستني»[3]، وقوله ﷺ لأم سلمة ـ رضي الله عنها ـ حين اشتكت إليه أنها تشتكي: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة»[4]، وأمره ﷺ للظُعُن والضَعَفَة أن ينفروا من جَمْع بليل[5].

كما شمل تعليمه الصغار والأطفال، ومن ذلك قوله ﷺ لابن العباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو غلام غداة العقبة، وهو واقف على

---

(١) اللطح: الضرب الخفيف ببطن الكف، انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٤/ ٢٥٠، لسان العرب لابن منظور، مادة (لطح).

(٢) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٥، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥١.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٢٠٧.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ٤٦٤.

(٥) صحيح البخاري، رقم: ١٦٧٩، سنن النسائي، رقم: ٣٠٣٤، وقال الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم: ٢٨٤٠: حسن، صحيح الإسناد.

راحلته: «هات، اُلقطْ لي»، يقول ابن عباس: «فلقطت له حصيات هُنَّ حصىٰ الخَذْف، فوضعتهن في يده، وجعل يقول بِهِنَّ في يده بأمثال هؤلاء»(١)، وقوله ﷺ لغلمان بني عبد المطلب: «لا ترموا الجمرة حتىٰ تطلع الشمس»(٢).

ولم يكن تعليمه الناس للعلم بل للعمل، ولذا نبَّه علىٰ حكمة مشروعية بعض المناسك، كقوله ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله»(٣).

واستنهض الهمم للعمل بذكر مراتب بعض الأعمال وفضائلها، ومن ذلك: قوله ﷺ: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير»(٤)، وقوله ﷺ: «مَسْحُ الحجر والركن اليماني يَحُطُّ الخطايا حطّاً»(٥)، وقوله ﷺ: «مَن طاف بالبيت وصلىٰ ركعتين، كان

---

(١) انظر: سنن النسائي، رقم: ٣٠٥٩، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم: ٢٨٦٥.

(٢) سنن أبي داود، رقم: ١٩٤٠، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٧١٠.

(٣) سنن أبي داود، رقم: ١٨٨٨، واللفظ له، جامع الترمذي، رقم: ٩٠٢، وقال حسن صحيح، وحسن الحديث الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول، رقم: ١٥٠٥.

(٤) جامع الترمذي، رقم: ٣٥٨٥، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٨٣٧.

(٥) صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٧٢٩، صحيح ابن حبان، رقم: ٣٦٩٨، وإسناده قوي.

كعتق رقبة»(١)، وقوله ﷺ حين سئل: أي الحج أفضل؟ قال: «العَجُّ والثَجُّ»(٢)، وقوله ﷺ ـ لأنصاري سأله في منىٰ عن فضائل بعض أعمال الحج فأجابه ـ: «فأمَّا خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام فإن لك بكل وَطْأَة تطأها راحلتك، يكتب الله لك حسنة ويمحو عنك سيئة، وأما وقوفك بعرفة فإن الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ينزل إلىٰ سماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة، فيقول: هؤلاء عبادي جاءوا شعثاً غبراً من كل فجٍّ عميق، يرجون رحمتي ويخافون عذابي ولم يروني، فكيف لو رأوني، فلو كان عليك مثل رمل عالج(٣)، أو مثل أيام الدنيا، أو مثل قطر السماء ذنوباً غسلها الله عنك، وأما رميك الجمار فإنه مذخور لك، وأما حَلْقُك رأسك فإن لك بكل شعرة تسقط حسنة، فإذا طفت بالبيت خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك»(٤).

---

(١) سنن ابن ماجة، رقم: ٢٩٥٦، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٩٣.

(٢) جامع الترمذي، رقم: ٨٢٧، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٦١، والمراد بالعج: رفع الصوت بالتلبية، وبالثج: سيلان دم الهدي، انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ١/ ٢٠٧، ٣/ ١٨٤.

(٣) خَبْتٌ وبادية كبيرة من الرمل لا ماء بها في غير موسم المطر، وقد اختلف في موضعه، انظر: معجم البلدان للحموي: ٤/ ٦٩ـ٧٠، معجم ما استعجم، للبكري: ٣/ ٩١٣.

(٤) مصنف عبد الرزاق، رقم: ٨٨٣٠، واللفظ له، المعجم الأوسط للطبراني، رقم: ٢٣٢٠، وحسن الحديث الألباني في صحيح الجامع، رقم: ١٣٦٠، و انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٣٤٨، جامع الترمذي، رقم: ٣٥٨٥، وحسن الحديث الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٨٣٧.

وحض ﷺ الناس على استكمال نسكهم، فبشَّرهم بثمار بعض الأعمال التي سبق أداؤهم لها، ومن ذلك: حديث بلال ـ رضي الله عنه ـ: «أن النبي ﷺ قال غداة جَمْع: إن الله تَطَوَّل عليكم في جمعكم هذا فوهب مسيئكم لمحسنكم، وأعطى محسنكم ما سأل، ادفعوا باسم الله»(١).

و أبرز الأمور التي اهتم النبي ﷺ بتعليم الناس إياها، هي:

أحكام المناسك: حيث جمع فيها النبي ﷺ بين البيان النظري والتطبيق العملي، فإنه ﷺ «لما كان قبل التروية بيوم، خطب الناس فأخبرهم بمناسكهم»(٢)، ثم كان ﷺ عند كل منسك يبلغهم بحكمه(٣).

ومن ذلك: بيانه ﷺ منزلة أركان الإسلام وقواعده الكبار، إذ قال في إحدى خطبه في الموسم: «اتقوا ربكم، وصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم»(٤).

ومن ذلك: نهيه ﷺ عن الشرك وبعض المحرمات العظام التي اتفقت

---

(١) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٤، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥٠.

(٢) المستدرك للحاكم: ١/ ٦٣٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: ٤٧٧٤.

(٣) انظر على سبيل المثال: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، جامع الترمذي، رقم: ٨٨٥، وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٢، سنن أبي داود، رقم: ١٩٥٩، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٧٢٤.

(٤) جامع الترمذي، رقم: ٦١٦ وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٥١٢، وانظر: المسند لأحمد، رقم: ١٥٨٨٣ وسنده ضعيف، والحديث حسن بمجموع طرقه.

الشرائع على تحريمها، وهي الدماء، والأموال، والأعراض؛ إذ قال ﷺ: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»[(١)]، وقال ﷺ: «إنما هن أربع: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تزنوا»[(٢)].

ومن ذلك: بيانه ﷺ بعض الأحكام الشرعية، ككيفية غسل المحرم وتكفينه، كما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «بينما رجل واقف بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته، قال النبي ﷺ: اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه، ولا تخمِّروا رأسه؛ فإنه يُبعث يوم القيامة ملبياً»[(٣)].

واليوم نرى الجهل يجثم على صدر الأمة، ويضرب بأوتاده في عقول معظم أبنائها، حتى جُهل من الدين ما لا يُجْهَل، ونُسِي من العلم ما لا يُنْسَى، فصارت معالم الإسلام لدى كثيرين غائبة، وقواعده غير معروفة، وأصبح انتساب طائفة عريضة من المسلمين إلى الإسلام لا يعدو أن يكون انتساب وراثة وتاريخ وعاطفة، أكثر من أن يكون انتساب فَهْم

(١) صحيح البخاري، رقم: ٦٧.

(٢) المسند لأحمد، رقم: ١٨٩٨٩، وسنده صحيح.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٢٦٧، صحيح مسلم، رقم: ١٢٠٦.

وإدراك، ومن ثم تطبيق وممارسة، وهو الأمر الذي مَكَّن أرباب الضلالة من أهل الزيغ والأهواء من نشر باطلهم في أوساط العامة، عن طريق عرضه بشكل جذاب يوهم الغِرَّ بأن الظلام نور، والمنكر معروف؛ استغلالاً منهم لجهل المسلمين بدينهم، وعاطفتهم الجياشة نحوه في آنٍ، فازداد بذلك الباطل فشوّاً وانتشاراً، والحق اندراساً وغربة.

وبما أنَّا نرى اليوم الملايين من البشر في الحج تتوافد على الديار المقدسة عاماً بعد آخر، فإن الفرصة مواتية لأن يتصدىٰ أهل العلم لتعليمهم أصول الدين وتفقيههم بأحكامه، وتعميق اعتزازهم بالانتساب إلىٰ الإسلام، وإذكاء روح الحماس لديهم للعمل به، والدعوة إليه، والذود عن حياضه؛ مما يجعل الواجب متحتماً علىٰ كل طالب علم يحجُّ بيت الله الحرام ـ وهو قادر علىٰ التبليغ والبيان ـ أن يتصدىٰ لتعليم الحجيج دينهم غاية جهده؛ لكي يكون ذلك سبيلاً لرفع الجهل عن الأمة وحسر ظلمته، ونشر العلم ورفرفة أعلامه.

٢ ـ الإفتاء:

من أهم أحوال النبي ﷺ في الحج، والأعمال التي تقلب فيها مع الناس فيه: تبيين المشكل عليهم من الأحكام، والجواب عن استفساراتهم.

وفتاويه ﷺ في موسم الحج كثيرة، ولعل من أشهرها: «أن امرأة من

خثعم قالت: يا رسول الله، إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج، وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره؟ فقال النبي ﷺ: فحُجي عنه»[١]، وقوله ﷺ لكل من سأله عن التقديم والتأخير في أعمال يوم النحر: «افعل ولا حرج»[٢].

والملاحظ: في إفتائه ﷺ في الموسم أمور عدة، من أوضحها:

وقوفه ﷺ للناس وبروزه لهم لكي يروه ويسألوه، كما يدل لذلك حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «طاف رسول الله ﷺ بالبيت في حجة الوداع على راحلته، يستلم الحجر بمحجنه؛ لأن يراه الناس، ولِيُشْرِف، وليسألوه؛ فإن الناس غشوه»[٣]، وحديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: «وقف رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه...»[٤].

ومنها: جنوحه إلى التيسير في فتاويه، والتخفيف على ذوي الحاجات، والشواهد على ذلك كثيرة، منها: حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «دخل النبي ﷺ على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب،

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٣٣٥.
(٢) صحيح البخاري، رقم: ٨٣.
(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٢٧٣.
(٤) صحيح البخاري، رقم: ١٧٣٦، صحيح مسلم، رقم: ١٣٠٦، واللفظ له.

فقالت: يا رسول الله، إني أريد الحج وأنا شاكية؟ فقال النبي ﷺ: حُجي، واشترطي أن محلي حيث حبستني»[١]، وحديث جابر - رضي الله عنه - الطويل، وفيه أنه ﷺ قال: «لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليُحِل، وليجعلها عمرة. فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرىٰ، وقال: دخلت العمرة في الحج - مرتين -، لا، بل لأبد أبد»[٢]، وحديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - «أنه شهد النبي ﷺ يخطب يوم النحر، فقام إليه رجل فقال: كنت أحسب أن كذا قبل كذا، ثم قام آخر فقال: كنت أحسب أن كذا قبل كذا، حلقت قبل أن أنحر، نحرت قبل أن أرمي، وأشباه ذلك، فقال النبي ﷺ: افعل ولا حرج - لهن كلهن -، فما سئل يومئذ عن شيء إلا قال: افعل ولا حرج»[٣]، وحديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «استأذن العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - رسول الله ﷺ أن يبيت بمكة ليالي منىٰ من أجل سقايته، فأذن له»[٤]، وحديث عدي - رضي الله عنه -

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢٠٧.
(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.
(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٧٣٦.
(٤) صحيح البخاري، رقم: ١٦٣٤.

قال: «رخص رسول الله ﷺ لرعاء الإبل في البيتوتة، أن يرموا يوم النحر، ثم يجمعوا رمي يومين بعد يوم النحر فيرمونه في أحدهما»(١).

ومنها: حرصه ﷺ على الإقناع لمن يستفتيه، كقوله ﷺ لرجل قال له: «يا رسول الله، إن أبي أدركه الإسلام، وهو شيخ كبير، لا يثبت على راحلته، أفأحج عنه؟ قال: أرأيت لو كان عليه دين فقضيته عنه، أكان يُجزيه؟ قال: نعم. قال: فاحجج عن أبيك»(٢).

ومنها: صبره ﷺ على السائلين، واحتماله لأذاهم مع الرفق بهم والرحمة لهم، والشواهد الدالة على ذلك كثيرة، منها: حديث جابر - رضي الله عنه - الطويل، وفيه: «ثم ركب القصواء، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك»(٣)، وحديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «إن رسول الله ﷺ كثر عليه الناس، يقولون: هذا محمد، هذا محمد، حتى خرج العواتق من البيوت. قال: وكان رسول الله ﷺ لا يُضْرَب الناس بين يديه، فلما كثر عليه ركِب، والمشي والسعي أفضل»(٤)، وفي آخر قال - رضي الله

---

(١) جامع الترمذي، رقم: ٩٥٥، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٦٣.
(٢) المسند لأحمد، رقم: ١٨١٢، وهو حديث صحيح.
(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.
(٤) صحيح مسلم، رقم: ١٢٦٤.

عنهما ـ: «طاف بين الصفا والمروة على بعير، وليس ذلك بسُنَّة، كان الناس لا يُصْدَفُون عن رسول الله ﷺ ولا يُدْفَعُون، فطاف على بعير؛ ليستمعوا، وليروا مكانه، ولا تناله أيديهم»[(١)]، وحديث قدامة العامري ـ رضي الله عنه ـ قال: «رأيت رسول الله ﷺ رمى الجمرة يوم النحر على ناقة له صهباء، لا ضرب، ولا طرد، ولا إليك إليك»[(٢)].

ومنها: إفتاؤه ﷺ في شأن الحج، وهو الغالب، ومن ذلك:

قوله ﷺ لأسماء بنت عميس ـ رضي الله عنها ـ لما ولدت، وهي معه بذي الحليفة، فأرسلت إليه ﷺ تسأله: كيف تصنع؟ قال: «اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي»[(٣)]، وقوله ﷺ لأصحابه حين أمرهم أن يُحِلوا، فسألوه قائلين: «يا رسول الله، أي الحِلِّ؟ قال: الحِلُّ كله»[(٤)]، وقوله ﷺ لأوس الطائي ـ رضي الله عنه ـ حين سأله، فقال: «يا رسول الله، إني جئت من جبلي طيئ، أكلَلْتُ راحلتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من حبل[(٥)] إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟ فقال رسول الله

---

(١) المسند لأحمد، رقم: ٢٨٤٢، وهو حديث حسن.

(٢) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٣٥، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٦١.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ٣٨٣٢.

(٥) أي من كثيب رمل؛ لأن حبل الرمل: ما اجتمع فاستطال وارتفع، انظر: الصحاح للجوهري، مادة (حبل)، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ١/ ٣٣٣.

ﷺ: من شهد صلاتنا هذه، ووقف معنا حتىٰ ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد أتم حَجَّه وقضىٰ تفثه»(١) .

وإفتاؤه ﷺ في شأن غير الحج، وهو قليل، ومن ذلك:

ما جاء في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ من أن سراقة بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «يا رسول الله، بَيِّن لنا ديننا كأنا خُلقنا الآن، فيما العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أو فيما نستقبل؟، قال: لا، بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير. قال: ففيمَ العمل؟ قال: اعملوا فكلٌّ مُيسَّر»(٢)، وحديث أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: «خرج رسول الله ﷺ حاجاً، وخرجنا معه ـ وفيه: قصة صيده أتاناً وحشية، وأكل أصحابه منها، وهم حُرُم ـ قال: فقالوا: أكلنا لحماً ونحن محرمون، قال: فحملوا ما بقي من لحم الأتان، فلما أتوا رسول الله ﷺ، قالوا: يا رسول الله، إنا كنا أحرمنا، وكان أبو قتادة لم يحرم، فرأينا حُمُر وحش، فحمل عليها أبو قتادة فعقر منها أتاناً، فنزلنا فأكلنا من لحمها، فقلنا: نأكل لحم صيد ونحن محرمون! فحملنا ما بقي من لحمها، فقال: هل منكم أحد أَمَره أو أشار إليه بشيء؟ قالوا: لا. قال: فكلوا ما بقي من لحمها»(٣) .

(١) جامع الترمذي، رقم: ٨٩١، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٧.
(٢) المسند لأحمد، رقم: ١٤١١٦، وإسناده صحيح.
(٣) صحيح مسلم، رقم: ١١٩٦. والأتان: أنثىٰ الحمار.

ومنها: اختلاف كيفية إجابته ﷺ لمن يستفتيه حسب الأنسب، إذ مرة كان يقتصر على الجواب المباشر لصاحب السؤال[١]، وهو الغالب، ومن ذلك: قوله ﷺ للفتاة الخثعمية التي قالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: نعم»[٢].

وفي أخرى كان ﷺ يبين للناس بياناً عاماً عما سئل فيه، كما في حديث عبد الرحمن بن يَعْمَر: «أن أناساً من أهل نجد أتوا رسول الله ﷺ وهو بعرفة، فسألوه، فأمر منادياً فنادى: الحج عرفة..»[٣].

ومنها: أنه ﷺ كان في أحيان يمزج فتواه بترغيب بالعمل، ومن شواهد ذلك: قوله ﷺ لامرأة بالروحاء رفعت إليه صبياً، فقالت: «ألهذا حج؟ قال: نعم، ولك أجر»[٤].

ومنها: تعدد مواطن فتاويه، وإفتاؤه ﷺ الناس في كل موطن، إذ أفتى الحجيج بالمدينة[٥]، وعند الإحرام بذي الحليفة[٦]، وفي البيت

(١) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ٨٣، المسند لأحمد، رقم: ١٨١٢، وهو حديث صحيح.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٥١٣.

(٣) جامع الترمذي، رقم: ٨٨٩، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٥.

(٤) صحيح مسلم، رقم: ١٣٣٦.

(٥) انظر: فتواه ﷺ لضباعة - رضي الله عنها - في صحيح البخاري، رقم: ١٧٣٦، صحيح مسلم، رقم: ١٣٠٦.

(٦) انظر: فتواه ﷺ لأسماء بنت عميس - رضي الله عنها - في صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

الحرام[١]، وفي عرفة[٢]، ومزدلفة[٣]، ومنىٰ[٤]، وأثناء التنقل بين المشاعر[٥]، وفي طريق العودة إلىٰ المدينة[٦].

ومع الدور المقدر في وقتنا لأهل العلم ـ وفقهم الله ـ في هذا الجانب، إلا أن المُشاهَد في الحج اليوم: أن عامة السائلين في كل واد يهيمون، للبحث عن من يحل إشكالاتهم، ويجيب عن استفساراتهم، مما دفع بغالب العامة إلىٰ سؤال المتعالمين، بل وكل أحد يظهر عليه شيء من مظاهر الصلاح والخير، مما يجعل من المحتم مزيد ترتيب للأمر، وقيام أهل العلم بالإشراف للناس ـ من كافة اللغات ـ، والبروز لهم في طرقاتهم ومواضع إقامتهم؛ للإجابة علىٰ أسئلتهم، وحل إشكالاتهم؛ ليتم رفع الجهل عنهم من جهة، وقطع الطريق علىٰ غير أهل العلم من التصدر للإفتاء من جهة أخرىٰ.

---

(١) انظر: فتواه ﷺ لسراقة بن مالك في صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٢) انظر: فتواه ﷺ لمن سأله من أهل نجد في جامع الترمذي، رقم: ٨٨٩، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٥.

(٣) انظر: فتواه ﷺ في إدراك الحج بالمجيء من عرفة إلىٰ جمع قبل طلوع الفجر في جامع الترمذي، رقم: ٨٩١، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٧.

(٤) انظر: فتواه ﷺ للناس حين سئل عن التقديم والتأخير يوم النحر عند الجمرة في صحيح البخاري، رقم: ٨٣.

(٥) انظر: فتواه ﷺ للخثعمية وهو في طريقه إلىٰ منىٰ، في صحيح مسلم، رقم: ١٢٧٣.

(٦) انظر: فتواه ﷺ للمرأة التي سألته بفج الروحاء عن صحة حج الصبي، في صحيح مسلم، رقم: ١٣٣٦.

كما لا بد من توعية العامة بأهمية التثبت من كون مَنْ يجيب على استفساراتهم من أهل العلم والدين، وأن ذمة أحدهم لا تبرأ بسؤال أحد ليست صفته كذلك، والقيام ببيان خطورة إفتاء الناس بغير علم، وأن ذلك من الافتراء على الله والرسول، وتعمد الكذب عليهما، وقد قال الباري ـ عز وجل ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال ﷺ محذراً من الأمر: «إنَّ كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1].

٣ـ الوعظ والتذكير:

الوعظ والتذكير: من وظائف المصلحين، وركائز الداعين، أمر الله ـ تعالى ـ به أولي العزم من رسله، فقال ـ سبحانه ـ مخاطباً نبيه موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقال ـ عز وجل ـ مخاطباً نبينا محمد ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، وما ذاك إلا لكونه سبيلاً لمخاطبة قلب العبد، واستدرار عاطفته، ومعيناً له على مفارقة الزلة، والخروج من الغفلة؛ إذ يلين القلب وينيره، ويزيل الغشاوة والران عنه، ويجعل صاحبه مستحضراً لعظمة ربه، مسارعاً في امتثال أمره، واجتناب نهيه، ولذا فكل

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٢٩١.

أحد محتاج إليه، ولكن لا ينتفع به إلا من خشي الله واتقاه، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ٩، ١٠]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

[الذاريات: ٥٥].

ومن أجل هذا كان للنبي ﷺ عناية خاصة بالتذكير، واهتمام ظاهر بالوعظ، فأرشد أمته إلىٰ الخير ورغبها فيه، ونهاها عن الشر ورهبها منه، وكان ﷺ يَتَخَوَّل أصحابه بالموعظة[1] مذكراً إياهم بمواعظ بليغة، تذرف منها العيون، وتوجل منها القلوب[2]، وما ذاك إلا لكونه إحدىٰ مهامه الرئيسة التي بعثه الله ـ تعالىٰ ـ بها، كما قال ﷺ: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتىٰ قوماً، فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان؛ فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، فانطلقوا علىٰ مهلهم فنجوا، وكذَّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فَصَبَّحَهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذَّب بما جئت به من الحق»[3].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٧٠، ومعنىٰ: يتخول: يتعهد ويتحين الوقت المناسب للوعظ؛ مخافة سآمتهم ومللهم، انظر: غريب الحديث لابن الجوزي: ١/ ٣١٣.

(٢) انظر: جامع الترمذي، رقم: ٢٦٧٦، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢١٥٧.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٧٢٨٣.

وفي الحج كان ﷺ مُذَكِّر الناس وواعظهم، ومن نظر في وعظه، وتأمل في تذكيره فيه، بانت له قضايا، واتضحت له أمور، من أبرزها:

كثرة وعظه ﷺ، وتعدد مواطن تذكيره؛ إذ وعظ الناس واستثار كوامن نفوسهم في عرفات(١)، وأثناء تنقله بين المشاعر(٢)، وفي منى يوم النحر(٣)، وأيام التشريق(٤)، وفي طريق العودة إلى المدينة(٥)، وما ذلك منه ﷺ إلا لكون النفوس في الموسم أكثر تهيؤاً لقبول الوعظ والتأثر به.

ومنها: استثماره ﷺ الفرص، وربطه بين المواقف، كقوله ﷺ حين خطب الناس يوم النحر: «أتدرون أي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى، قال:

---

(١) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، المسند لأحمد، رقم: ٦١٧٣، وهو حديث صحيح لغيره.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٧١، المسند لأحمد، رقم: ٢٢٦٤، وهو حديث صحيح.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧٤١، ٤٤٠٣، ٤٤٠٦، ٥٥٥٠.

(٤) انظر: المسند لأحمد، رقم: ٢٠٦٩٥، وهو حديث صحيح لغيره.

(٥) انظر: وعظه ﷺ للناس في غدير خُمٍّ أثناء قفوله من الحج، كما في حديث زيد بن أرقم - رضي الله عنه - عند النسائي في الكبرى، رقم: ٨٤٦٤، قال: «لما رجع رسول الله ﷺ عن حجة الوداع، ونزل غدير خُمٍّ، أمر بدوحات، فقممن، ثم قال: كأني قد دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين - أحدهما أكبر من الآخر -: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض»، وصححه الذهبي، كما في السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٤١٦.

أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتىٰ ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليست بالبلدة الحرام؟ قلنا: بلىٰ، قال: فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا إلىٰ يوم تلقون ربكم»[(١)]، وقوله ﷺ حين سئل عن التقديم والتأخير في أعمال يوم النحر: «لا حرج، لا حرج، إلا علىٰ رجل اقترض عرض أخيه المسلم وهو ظالم، فذلك الذي حَرِج وهلك»[(٢)].

ومنها: تكراره ﷺ التذكير بالشيء الواحد في أكثر من موطن، كتأكيده علىٰ حرمة الدماء والأموال والأعراض في كل من يوم عرفة[(٣)] ويوم النحر[(٤)] وأوسط أيام التشريق[(٥)]، بل إنه ﷺ كان ربما أعاد التذكير بالشيء نفسه في الموطن الواحد أكثر من مرة، كما في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر، فقال: يا أيها الناس، أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام. قال: فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام. قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٧٤١.

(٢) سنن أبي داود، رقم: ٢٠١٥، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٧٧٥.

(٣) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، السنن الكبرىٰ للنسائي، رقم: ٤٠٠٢.

(٤) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٦٧.

(٥) انظر: المسند لأحمد، رقم: ٢٠٦٩٥، والحديث صحيح لغيره.

هذا، في شهركم هذا. فأعادها مراراً»[١].

ومنها: عدم وجود انفصام بين ما يُذَكِّر به ﷺ ويفعله، إذ وعظ ﷺ الناس بفعاله كما وعظهم ببيانه، فكان أتقى الناس لله وأصدقهم وأبرهم به، وكان لا يقول ما لا يفعل، بل إذا أمر بشيء كان أسبق الناس إليه، وإذا نهى عن شيء كان أكثرهم مفارقة له.

ومنها: وضوح وعظه ﷺ، ومباشرة تذكيره، وابتعاده عن التكلف فيه، ولذا لا نجده ﷺ أثناء تذكيره للناس مستخدماً في خطابه إياهم للغات شاذة، أو أساليب غير معهودة.

ومنها: اهتمامه ﷺ بالتأكيد على المسائل الهامة والقواعد الكلية، والتي مدار نجاة العباد عليها، وصلاح الدين وقوام الدنيا بها، وتركه ﷺ في وعظه وتذكيره تشقيقَ الأمور، وتناوُلَ الأمور الأقل أهمية.

ومنها: عدم اقتصاره ﷺ على الوعظ بنفسه، بل أمر من ينادي في الناس يعظهم، كما في حديث بشر بن سحيم ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ بعثه أن ينادي أيام التشريق: «لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة... الحديث»[٢].

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٧٣٩.

(٢) صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٩٦٠، وإسناده صحيح.

ومنها: عدم اقتصاره ﷺ على الترهيب بل جمع معه الترغيب بالأجر، والتبشير بالثواب، ومن ذلك قوله ﷺ: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[(١)]، وقوله ﷺ غداة جمع للناس: «إن الله تطول عليكم في جمعكم هذا، فوهب مسيئكم لمحسنكم، وأعطى محسنكم ما سأل، ادفعوا باسم الله»[(٢)].

ومنها: عدم اكتفائه ﷺ في وعظه بالقول، إذ تجاوزه في ذلك إلى الفعل، وذلك عندما أسرع السير في بطن الوادي الذي حل فيه غضب الله ـ تعالى ـ بأصحاب الفيل، وهو وادي محسر، كما جاء في حديث علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «ثم أفاض حتى انتهى إلى وادي محسر، فَقَرَعَ ناقته، فخبَّت حتى جاوز الوادي، فوقف»[(٣)]، وسُمي الوادي بذلك لأن الفيل حسر فيه وتعب، ولم يستطع مواصلة السير إلى الكعبة، قال ابن القيم: «وهذه كانت عادته في المواضع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه»[(٤)].

وقد تناول ﷺ في وعظه للناس وتذكيره إياهم قضايا عدة،

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٥٢١.

(٢) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٤، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥٠.

(٣) جامع الترمذي، رقم: ٨٨٥، وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٢، ومعنى قَرَعَ ناقته: ضربها بسوطه، ومعنى خَبَّت: أسرعت، لأن الخبّ نوع من العدو، انظر: النهاية لابن الأثير: ٤/ ٤٣، لسان العرب لابن منظور، مادة (خبب).

(٤) زاد المعاد، لابن القيم: ٢/ ٢٥٥ـ٢٥٦.

وموضوعات مختلفة، من أهمها:

التزهيد في الدنيا، إذ قال ﷺ قبل الغروب بعرفات: «أيها الناس، إنه لم يبق من دنياكم فيما مضىٰ منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضىٰ منه»(١).

ومنها: الأمر بالتقوىٰ والدلالة علىٰ ما يدخل المرء الجنة، إذ قال ﷺ: «اتقوا ربكم، وصَلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم»(٢).

ومنها: بيان أن لا أحد يحمل جريرة أحد، وأن المسؤولية أمام المولىٰ - عز وجل - فردية، إذ قال ﷺ: «ألا لا يجني جان إلا علىٰ نفسه، لا يجني والد علىٰ ولده، ولا مولود علىٰ والده»(٣).

ومنها: الترغيب في حسن الخلق، وفعل الخيرات، وترك الفسوق والعصيان أثناء النُّسك، والاشتغال بما ينفع، إذ قال ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»(٤)، وقوله ﷺ: «ليس

(١) المسند لأحمد، رقم: ٦١٧٣، والحديث صحيح لغيره.

(٢) جامع الترمذي، رقم: ٦١٦، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٥٠٢.

(٣) سنن ابن ماجة، رقم: ٢٦٦٩، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢١٦٠.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ١٨١٩.

البر بإيضاع الخيل ولا الرِّكاب»[١] وقوله ﷺ حين سئل: ما بر الحج؟ قال: «إطعام الطعام وطيب الكلام»[٢].

ومنها: التحذير من الغلو، إذ قال ﷺ: «يا أيها الناس، إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[٣].

ومنها: الوصاية ببر الوالدين وصلة الرحم، إذ قال ﷺ حين خطب الناس بمنى في حجة الوداع: «أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»[٤].

ومنها: الوصاية بالضعفاء من النساء والأرقاء والأمر بالإحسان إليهم، إذ قال ﷺ: «فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[٥]، وفي رواية: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هُنَّ عَوَانٍ عندكم»[٦]، وجاء في حديث مرفوع: «أرقَّاءَكم

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٦٧١، المسند لأحمد، رقم: ٢٢٦٤، وهو حديث صحيح، واللفظ له، والمراد بالرِّكاب هنا: الرواحل من الإبل، انظر: الفائق للزمخشري: ٢/ ٧٩.

(٢) المستدرك للحاكم: ١/ ٦٥٨، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/ ٢٠٧، و الألباني في صحيح الجامع، رقم: ٢٨١٩.

(٣) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٩، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥٥.

(٤) المعجم الكبير للطبراني، رقم: ٤٨٤، المختارة للضياء، رقم: ١٣٨٩، وقال: إسناده صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم: ١٤٠٠.

(٥) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٦) جامع الترمذي، رقم: ٣٠٨٧، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٤٦٤، والمعنى: فإنهن كالأسراء عندكم، انظر: النهاية لابن الأثير: ٣/ ٣١٤.

أرقَّاءكم أرقَّاءكم، أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، فإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه، فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم»(١).

ومنها: حثه ﷺ على اجتناب أذية الآخرين، والاجتهاد في الطاعة، وهجر المعصية، إذ قال ﷺ: «ألا أخبركم بالمؤمن: مَن أَمِنَه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»(٢).

ومنها: حثه ﷺ على التبليغ عنه، وتحذيره من الكذب عليه، إذ قال ﷺ: «نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه»(٣)، وقال ﷺ: «وقد رأيتموني وسمعتم مني وستسألون عني، فمن كذب علي فليتبوأ مقعده من النار»(٤).

ومنها: حثه ﷺ الناس على الاجتهاد في التضرع والمناجاة والدعاء، ودفعه إياهم إلى رجاء المغفرة وتوقع نيل الرحمة، ومن ذلك قوله ﷺ: «ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو،

---

(١) المسند لأحمد، رقم: ١٦٤٠٩، وإسناده ضعيف، وله أصل عند الشيخين من حديث أبي ذر -رضي الله عنه-، انظر: صحيح البخاري، رقم: ٣٠، صحيح مسلم، رقم: ١٦٦١.

(٢) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٩٣٦، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٣١٧٩، صحيح ابن حبان، رقم: ٤٨٦٢، واللفظ له.

(٣) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٥٦، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة، رقم: ٢٤٨٠.

(٤) المسند لأحمد، رقم: ٢٣٥٤٤، وسنده صحيح.

ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء»[١].

فيا ليت شعري! إذا كان النبي ﷺ يجتهد هذا الاجتهاد في وعظ الشيخين أبي بكر وعمر، وباقي العشرة، وأهل بدر والشجرة، وبقية الصحابة الكرام -رضي الله عنهم-، ويذكرهم بهذه المواعظ العظام التي تجعل القلب يخاف، والوجدان يهتز، والدمع يسيل، ويرسل الرسل ويبث المنادين لذلك، وهم خير هذه الأمة: أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأصدقها لهجة، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه[٢]، فكم هي حاجتنا إلى ذلك في الحج اليوم؟، وفينا الناسي والغافل، وفي وسطنا العاصي والجاهل، والشهوات تعج بيننا عجّاً، والشبهات ترجنا رجّاً.

لا شك أن الأمر جلل، والمسؤولية جسيمة، بل إن الحاجة إلى ذلك أعظم من الحاجة إلى الطعام والشراب؛ إذ الضرورة حَالَّة، والنفوس متفرغة متلهفة.

فلا بد للقادرين -على القيام بالوعظ والتذكير- من استغلال هذه الجموع المقبلة؛ علَّ النفوس تستيقظ من سباتها، والقلوب من رقادها،

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٣٤٨.

(٢) انظر: حلية الأولياء للأصبهاني: ١/ ٣٠٥، الجامع لأحكام القران للقرطبي: ١/ ٦٠ عن ابن مسعود -رضي الله عنه- بتصرف.

فيقوىٰ بذلك الإيمان، وتكثر الأوبة إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ، والانكسار بين يديه، فيكونون بذلك سبيل هداية، وسبب حصول نور وإشعاع في الأمة.

٤ ـ التربية على الاتباع، وتوحيد مصدر التلقي:

الإسلام هو: الخضوع والذل لله وحده، والإذعان لما جاء به رسوله ﷺ، ولا تثبت قدم أحد فيه ما لم يُسلِّم لنصوص الوحي تسليماً كلياً، وينقاد إليها في الظاهر والباطن، ولا يعترض علىٰ شيء منها[1]، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وكما روي عنه ﷺ في الحديث أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جئت به»[2]، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «أجمع المسلمون علىٰ أن من استبانت له سُنَّة رسول الله: لم يحل له أن يدعها لقول أحد»[3].

والحج آية في الانقياد، ومدرسة في التسليم والاستسلام، ربَّىٰ النبي ﷺ فيه أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ علىٰ توحيد متابعته، وغرس في نفوسهم ضرورة التأسي والاقتداء به، يقول جابر ـ رضي الله عنه ـ واصفاً

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ٢٠١.

(٢) شرح السنة للبغوي، رقم: ١٠٤، وضعفه المحقق، ، واستبعد صحته جداً الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم: ٢/ ٣٩٣ـ٣٩٤، وصححه النووي في آخر الأربعين، وقال ابن حجر في الفتح: ١٣/ ٢٨٩: أخرجه الحسن بن سفيان، ورجاله ثقات.

(٣) مدارج السالكين لابن القيم: ٢/ ٣٣٥.

الحال: «ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه القرآن ينزل، وهو يعرف تأويله، وما عمل من شيء عملنا به»[(١)]، **فأنتجت تلك التربية العظيمة ثمرات يانعة مباركة كان من عيِّناتها:**

الفاروق عمر - رضي الله عنه - والذي جاء إلى الحجر الأسود فقبَّله، ثم قال: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك»[(٢)]، وقال - رضي الله عنه - يوماً: «فيم الرَمَلان[(٣)] اليوم، والكشف عن المناكب[(٤)]، وقد أطَّأ[(٥)] الله الإسلام، ونفى الكفر وأهله، مع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ»[(٦)]،

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٥٩٧.

(٣) الرَمَلان: لغة في الرَّمَل، وهو إسراع المشي وهز المنكبين مع مقاربة الطائف الخطا في الثلاثة الأشواط الأولى من طواف القدوم خاصة، انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٢/ ٢٦٥.

(٤) المراد هنا بكشف المناكب: الاضطباع، وهو: أن تدخل الرداء من تحت إبطك الأيمن وتغطي به الأيسر، كالرجل يريد أن يعالج أمراً فيتهيأ له، وهو خاص بطواف القدوم، انظر: لسان العرب لابن منظور: ٨/ ٢١٦.

(٥) بتشديد الطاء، أي: أثبته وأرساه وأحكمه، أصله: وطئ، فأبدلت الواو همزة، كما في وقتت وأقتت، انظر: عون المعبود للعظيم آبادي: ٥/ ٢٣٩.

(٦) سنن أبي داود، رقم: ١٨٨٧، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٦٦٢: حسن صحيح، وأصل الحديث في صحيح البخاري، رقم: ١٦٠٥، بلفظ قريب من هذا، من دون ذكر لكشف المناكب، وإنما قال الفاروق - رضي الله عنه - ما قال؛ لأن المقصود من الرمل والاضطباع في أول الأمر كان إظهار قوة المسلمين للمشركين الذين خرجوا على رؤوس الجبال المحيطة بالمسجد ينظرون إلى المسلمين في عمرة القضاء، وهم يقولون بأن المسلمين قد وهنتهم حمى=

وفي رواية: «وأَيْم الله ما ندع شيئا كنا نفعله...»[١].

وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - الذي حين اختلف مع عثمان - رضي الله عنه - وهو خليفة في شأن المتعة في الحج، وكان عثمان ينهىٰ عنها، لبىٰ بها قائلاً: «لبيك بحجة وعمرة معاً. فقال عثمان: أتفعلها، وأنا أنهىٰ عنها؟، فقال علي: لم أكن لأدع سُنَّة رسول الله لأحد من الناس»[٢].

وعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - الذي كان يقول إذا أراد أن يستلم الحجر الأسود في ابتداء الطواف: «اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، واتباعاً لسُنَّة نبيك ﷺ»[٣]، ولم يكن يترك تقبيل الحجر الأسود

= يثرب وقد لقوا منها شدة، فأمر النبي ﷺ أصحابه - رضي الله عنهم - أن يرملوا ثلاثة أشواط ويمشوا ما بين الركنين، ليرىٰ المشركون جلدهم، فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمىٰ قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا، قال ابن عباس: ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم، (انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢٦٦)، ولذا تساءل الفاروق - رضي الله عنه - عن استمرار هذا الأمر، ثم قال ما قال، والصحيح استمرار مشروعيتهما لأن النبي ﷺ في حجته رمل واضطبع في طواف القدوم، انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٠٤، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، زاد المعاد لابن القيم: ٢/ ٢٢٥.

(١) سنن ابن ماجة، رقم: ٢٩٥٢، وقال الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٩٠: حسن صحيح.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٥٦٣، سنن النسائي، رقم: ٢٧٢٤، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم: ٢٥٥٢، واللفظ له.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني، رقم: ٥٨٤٣، وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/ ٢٤٠ بأن رجاله رجال الصحيح.

واستلام الركن اليماني في شدة ولا رخاء منذ رأىٰ رسول الله ﷺ يفعل ذلك[١]، قال مجاهد: «ولقد رأيته مرة زاحم حتىٰ رثم أنفه، وابتدر منخراه دماً»[٢]، وحين سأله رجل عن استلام الحجر الأسود فقال له: «رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله. فقال الرجل: أرأيت إن زُحمت، أرأيت إن غُلبت؟ فقال له: اجعل أرأيت باليمن، رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله»[٣]، وحين سأله آخر عن التمتع بالعمرة إلىٰ الحج فقال: «هي حلال. فقال الرجل: إن أباك قد نهىٰ عنها. فقال: أرأيت إن كان أبي قد نهىٰ عنها وصنعها رسول الله ﷺ: أمر أبي يُتَّبَع، أم أمر رسول الله ﷺ؟، فقال الرجل: بل أمر رسول الله ﷺ، فقال: لقد صنعها رسول الله ﷺ»[٤]، وحين قال له آخر: فإن ابن عباس يقول: لا تطف

---

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٠٦، صحيح مسلم، رقم: ١٢٦٨.

(٢) السنن الكبرىٰ للبيهقي: ٥/ ٨١، ومعنىٰ رثم أنفه: رضه حتىٰ كأنه كسر، ومعنىٰ ابتدر منخراه دماً: سالا دماً، انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ١/ ١٠٦، ٢/ ١٩٦، والمقصود من ذلك أن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ كان يتحمل الزحام وأذية الآخرين له في سبيل تحقيق السنة، لا أنه كان يؤذي الآخرين، كما يفعله بعض من جهل اليوم، فإن ذلك محرم قد ورد النهي الصريح عنه في قوله ﷺ: «يا عمر، إنك رجل قوي، لا تزاحم علىٰ الحجر فتؤذي الضعيف»، المسند لأحمد، رقم: ١٩٠، وهو حديث حسن، وقد كان ـ رضي الله عنهما ـ أعلم بالله وأتقىٰ له من أن يرتكب محرّماً ـ وبخاصة في ذلك المكان المبارك ـ في سبيل تحقيق سنة، والله أعلم.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٦١١.

(٤) جامع الترمذي، رقم: ٨٢٤، وقال: حسن صحيح، وصحح إسناده الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٥٨.

بالبيت حتى تأتي الموقف، فقال ابن عمر: «فقد حج رسول الله ﷺ فطاف بالبيت قبل أن يأتي الموقف، فبقول رسول الله ﷺ أحق أن تأخذ، أو بقول ابن عباس إن كنت صادقاً؟!»(١).

وحبر الأمة عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - الذي قال لمعاوية - رضي الله عنه - حين رآه يستلم أركان الكعبة كلها: «لِم تستلم هذين الركنين، ولم يكن رسول الله ﷺ يستلمهما، فقال معاوية: ليس شيء من البيت مهجوراً، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فقال معاوية: صدقت»(٢)، وكان - رضي الله عنهما - يرى جواز المتعة في الحج، فيقال له: فإن أبا بكر وعمر لم يفعلا ذلك، فيقول: «والله ما أرى الله إلا سيعذبكم، إني أحدثكم عن النبي ﷺ، وتجيئوني بأبي بكر وعمر»(٣).

ومظاهر تربية النبي ﷺ لأصحابه - رضي الله عنهم - في الحج على المتابعة، والاقتصار في الأخذ والتلقي على نصوص الوحي كثيرة جداً، من أبرزها:

مطالبته ﷺ الحجيج - في مواطن عدة خلال الموسم - بالتأسي به،

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢٣٣.

(٢) المسند لأحمد، رقم: ١٨٧٧، وهو حديث حسن لغيره.

(٣) المسند لأحمد، رقم: ٢٢٧٧، ٣١٢١ وإسناد الأول صحيح، الفقيه والمتفقه للخطيب، رقم: ٣٨٠، وإسناده صحيح، واللفظ له.

وتحفيزه إياهم على ذلك بذكر احتمال أن تكون حجته تلك آخر حجة له، إذ قال ﷺ - مراراً -: «لتأخذوا مناسككم؛ فإني لا أدري لعلّي لا أحج بعد حجتي هذه»[١].

ومنها: حثه ﷺ الناس في خطبته يوم عرفة على الاعتصام بالتنزيل والتمسك به؛ لأن ذلك طريق الوقاية من الزيغ والضلال، حيث قال ﷺ: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله»[٢].

ومنها: تحذيره ﷺ أمته من اتباع الأهواء، والابتداع في الدين، إذ قال ﷺ وهو واقف على ناقته بعرفات: «ألا وإني فرطكم على الحوض[٣]، وأكاثر بكم الأمم، فلا تُسَوِّدُوا وجهي، ألا وإني مُسْتَنْقِذ أناساً، ومُسْتَنْقَذ مني أناس، فأقول: يا ربِّ، أُصَيْحَابِي! فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[٤].

ومنها: تدريبه العلمي لأصحابه - رضوان الله عليهم - على فعل

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢٩٧، وانظر: سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٣، وصححه الحديث الألباني في صحيح ابن ماجة، رقم: ٢٤٤٩، المسند لأحمد، رقم: ١٤٩٤٣، وهو حديث صحيح.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) أي: أنا سابقكم على الحوض وأولكم قُدُوما عليه، انظر: الفائق في غريب الحديث للزمخشري: ٣/ ٩٧.

(٤) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٥٧، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٨١، وانظر: فتح الباري لابن حجر: ١١/ ٣٩٣.

النُّسك، وتحذيره إياهم من الغلو فيه، كما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة، وهو على ناقته: «اُلقطْ لي حصىً»، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: فلقطت له سبع حصيات من حصى الخَذْف، فجعل ينفضهن في كفه، ويقول: «أمثال هؤلاء فارموا»، ثم قال: «يا أيها الناس، إياكم والغلو في الدين؛ فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[١].

ومنها: إردافه ﷺ في تنقله بين المشاعر لِحِبِّه أسامة بن زيد، وابن عمه الفضل بن العباس - رضي الله عنهم -؛ ليتأسوا به، ويأخذوا عنه، وينقلوا للناس ما يرونه من حاله، ولذا قال الناس عن أسامة لما أردفه رسول الله ﷺ بين عرفة وجَمْع: «سيخبرنا صاحبنا بما صنع»، وقالوا عن الفضل حين أردفه رسول الله ﷺ بين مزدلفة ومنى: «يخبرنا صاحبنا بما صنع رسول الله ﷺ»[٢].

وعندي أن من أعظم مواقف تربية النبي ﷺ لأصحابه - رضي الله عنهم - على الاتباع، وتوحيد مصدر التلقي: إلزامه ﷺ لمن لم يسق الهدي منهم، وهم الأكثر[٣] بالحِلِّ من الإحرام بعد أن قال بعضهم:

---

(١) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٩، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥٥.

(٢) المسند لأحمد، رقم: ٢١٨٦١، ورجاله ثقات.

(٣) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١١.

«فنأتي عرفة تقطر مذاكيرنا المنيّ!»[١]، ووجه ذلك: أن النبي ﷺ خَيَّر الناس وأباح لمن لم يسق الهدي منهم الحِلَّ من الإحرام وإتيان النساء، كما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعاً قال: «وقال لما صلى الصبح: من شاء أن يجعلها عمرة فليجعلها عمرة»[٢]، وكما يدل على ذلك قول جابر - رضي الله عنه - : «وأن النبي ﷺ أذن لأصحابه أن يجعلوها عمرة، يطوفوا بالبيت ويقصروا ويحلوا، إلا مَن معه الهدي»[٣] وقوله - رضي الله عنه -: «ولم يَعْزِم عليهم، ولكن أَحَلَّهُن لهم»[٤]، ثم لما سمع ﷺ ذلك القول المنبئ عن تأثر قائله بما كان عليه المشركون من عدم جواز العمرة في أشهر الحج، وأن ذلك من أفجر الفجور[٥] - وذلك نوع من الأخذ والتلقي - ألزم أصحابه - رضوان الله عليهم - بالحِلِّ؛ ليصفو لهم الأخذ والتلقي عنه ﷺ فقط، فاستجابوا لذلك، وخضعوا وأطاعوا[٦].

والناظر في أحوال الناس اليوم يرى انتشار البدع، وموج الضلالات بصورة مفزعة في المناسك وغيرها، ولا سبيل لردم الهوة، وإصلاح الخلل إلا بتوحيد المتابعة للنبي ﷺ، وإفراده بالأخذ والتلقي، وقيام العلماء

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٦.
(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢٤٠.
(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٧٨٥.
(٤) صحيح البخاري، رقم: ٧٣٦٧.
(٥) صحيح البخاري، رقم: ١٥٦٤.
(٦) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٧٣٦٧، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٦.

والدعاة بتربية الأمة على ذلك، والحج فرصة مناسبة يمكن من خلالها قسر النفوس على الأخذ عن النبي ﷺ وحده، وعدم التلقي عن سواه.

فإذا كنت تريد النجاة فَسِرْ على درب القوم، وابدأ بنفسك فاقصرها على متابعة النبي ﷺ دون غيره، جاعلاً مِن حَجِّك بداية انطلاقتك؛ فإن ذاك أساس صحة العمل وقبوله، وشرط دخول الجنة والنجاة من النار، كما يدل لذلك نصوص كثيرة، منها: قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[1]، وقوله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[2].

٥- توحيد الأمة، وتحذيرها من الفتن ودواعي الافتراق:

من مقاصد الإسلام العظيمة: توحيد كلمة المسلمين، وجمع قلوبهم، ولمُّ شملهم، ورصُّ صفوفهم، ولذا استفاضت نصوص الكتاب والسنة بأمر العباد بالاجتماع والألفة، ونهيهم عن الاختلاف والفرقة، ومن ذلك: قوله - تعالى -: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله - سبحانه -: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وقوله - عز وجل -: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٧١٨.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٧٢٨٠.

الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]، وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه»(١)، وقوله ﷺ: «يد الله مع الجماعة»(٢).

ولما كان الحج - بما يحمل في طياته من وحدة في الشعور والمشاعر بين الناس - فرصة سانحة لتوحيد الأمة وتحذيرها من الفتنة ودواعي الفرقة، اهتم النبي ﷺ بذلك وأولاه عنايته، **وقد أخذ اهتمامه ذاك مظاهر شتى وأشكالاً مختلفة، من أبرزها:**

تسويته ﷺ بين أفراد الأمة، وعدم تمييزه بينهم إلا بالتقوىٰ، إذ قال ﷺ: «إن ربكم واحد، وأباكم واحد، ألا لا فضل لعربي علىٰ عجمي، ولا لعجمي علىٰ عربي، ولا لأسود علىٰ أحمر، ولا أحمر علىٰ أسود إلا بالتقوىٰ»(٣).

ومنها: أمره ﷺ بالسمع والطاعة والنصيحة لولاة الأمر الذين يقيمون كتاب الله - عز وجل -، ولزوم الجماعة والنصح للأئمة، حيث قال ﷺ: «إن أُمِّر عليكم عبد مجدع أسود، يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٢٤٤٦.

(٢) جامع الترمذي، رقم: ٢١٦٦، وقال حديث غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٧٦٠، وحسنه بشواهده الأرناؤوط في حاشية جامع الأصول، رقم: ٤٧٩٧.

(٣) المسند لأحمد، رقم: ٢٣٥٣٦، وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/ ٢٦٦ بأن رجاله رجال الصحيح.

وأطيعوا»[١]، وقال ﷺ بالخيف من منى: «ثلاث لا يُغِلُّ عليهن قلبُ مؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[٢].

ومنها: تحذيره ﷺ لأمته من الاستجابة لإغراء الشيطان وتهييجه بعضها على بعض، حيث قال ﷺ: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»[٣].

ومنها: نهيه ﷺ عن الابتداع في الدين، إذ قال ﷺ محذراً أمته: «ألا وإني مُسْتَنْقِذ أناساً، ومُسْتَنْقَذ مني أناس، فأقول: يا ربِّ، أُصَيْحَابِي! فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[٤].

ومنها: نهيه ﷺ عمَّا يسبب الفرقة، ويؤدي إلى الفتنة في المجتمع المسلم، كالاقتتال، حيث قال ﷺ بعد أن استنصت الناس: «لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض»[٥].

وكالاستهانة بدماء الآخرين وأموالهم وأعراضهم، حيث قال ﷺ في

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢٩٨.

(٢) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٥٦، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٨٠.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ٢٨١٢، وانظر: المسند لأحمد، رقم: ٢٠٦٩٥، وهو حديث صحيح لغيره.

(٤) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٥٧، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٨١.

(٥) صحيح البخاري، رقم: ١٢١.

خطبه الثلاث في عرفة ويوم النحر وأوسط أيام التشريق: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»(١).

وكالظلم وأخذ أموال الناس بغير طيب نفس منهم، حيث قال ﷺ: «اسمعوا مني تعيشوا، ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا، إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»(٢).

وكالوصية لوارث، حيث قال ﷺ: «إن الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ قد أعطىٰ كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»(٣).

وكغيبة المسلم والاستطالة في عرضه عدواناً، وذلك حين سئل عن التقديم والتأخير في أعمال يوم النحر، فقال ﷺ: «لا حرج، لا حرج، إلا علىٰ رجل اقترض عرض رجل مسلم وهو ظالم، فذلك الذي حرج وهلك»(٤).

ومنها: تحذيره ﷺ الأمة من الدجال، حيث قال ﷺ: «ما بعث الله من نبي إلا أنذر أمته... وإنه يخرج فيكم، فما خفي عليكم من شأنه فليس

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٦٧، وانظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، المسند لأحمد: ٢٠٦٩٥، وهو حديث صحيح لغيره.

(٢) المسند لأحمد، رقم: ٢٠٦٩٥، وهو حديث صحيح لغيره.

(٣) جامع الترمذي، رقم: ٢٢١٨، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٧٢١.

(٤) سنن أبي داود، رقم: ٢٠١٥، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٧٧٥.

يخفى عليكم أن ربكم ليس ما يخفى عليكم - ثلاثاً -، إن ربكم ليس بأعور، وإنه أعور عين اليمنى، كأن عينه عِنَبةٌ طافية»[١].

واليوم نرى الفرقة تمزق جسد أمتنا ،والفتنة - وبيدها خنجرها - جاثمة على صدرها، وفي المقابل نرى طروحات العلمانيين ومشاريعهم الوحدوية تعلن عجزها وإفلاسها، وترفع راية اندحارها وهزيمتها، ولم يبق من سبيل لتوحيد الأمة وجمع كلمتها إلا أخذها لدينها بقوة، واعتصامها بحبل ربها الذي تمكن في سابق عهدها من لَمِّ شتاتها ورَصِّ صفوفها، والحج مُواتٍ لأن يكون خط البداية، ونقطة الانطلاق؛ لأن قلوب وأجساد ملايين البشر مجتمعة فيه على كلمة سواء، مع اختلاف بينهم في البلدان واللغات والأعراق والثقافات والأعمار، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

والمدخل الحقيقي لذلك تملكه أنت - أخي الحاج -، إذ بمقدورك التخلص من اللوثات الجاهلية والتبرؤ منها، مع القيام بتقوية محبتك لله، بحيث لا تحب إلا من يحب، ولا تبغض إلا من يبغض، ثم تبدي هذا الحب وتبثه في أوساط الحجيج، داعياً لهم إلى أن يقوموا بمثل فعلك، ثم تلزم نفسك في حياتك كلها بلوازم تلك المحبة ومتطلباتها، من نصرة وعون للمؤمنين، والمحبة لهم ما تحب لنفسك، ومن عدم تجاوز الحاجة في

(١) صحيح البخاري، رقم: ٤٤٠٣.

معاملة غيرهم، فإن أنت فعلت هذا: فقد هديت للسبيل، ووفقت للخير، وتجاوزت الكلام، وخلفت الشعار، وخطوت خطوة جادة في سبيل وحدة الأمة واجتماع كلمتها.

٦ـ القيادة الناجحة، والمعاملة الحسنة:

جَمَّل الله ـ تعالىٰ ـ رسوله ﷺ بكمالات الأخلاق، وزيَّنه بأجلِّ الآداب، فامتلك لذلك مقومات القيادة الناجحة، والأساليب المثلىٰ للمعاملة الحسنة، فهوت إليه الأفئدة، وتدافع عليه الناس حين بلغهم عزمه علىٰ الحج، كل يريد السير في رعايته وتحت لوائه، فحج معه ﷺ جموع من الخلائق لا يُحصي عددهم إلا الله ـ تعالىٰ ـ، وقدَّر ذلك بعضهم بأكثر من مائة ألف إنسان[1]، كل يريد أن يأتم به، ويعمل مثل عمله[2]، فأثَّر ﷺ في نفوسهم أعمق تأثير، ووجههم أحسن توجيه، وقادهم أعظم قيادة عرفتها البشرية.

ولن تستطيع هذه الكلمات القليلات الإتيان على كافة جوانب عظمته ﷺ في قيادة تلك الأفواج الضخمة من الحجيج، وإبراز تعامله الفذ معها، ولذا فستقتصر على ذكر إشارات،وتجلية جوانب بشكل موجز؛ لتكون أنموذجاً لما خلفها، ودليلاً على ما وراءها، وذلك فيما يأتي:

---

(١) انظر: مختصر السيرة لابن عبد الوهاب: ٥٧٢.

(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

أ ـ جعله ﷺ من نفسه قدوة حسنة :

عاب الله ـ عز وجل ـ على عباده قول الخير والأمر به دون فعله ، فقال ـ سبحانه ـ : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة : ٤٤]، وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف : ٢، ٣] ، ولأن خُلُق رسول الله ﷺ كان القرآن[١] فما كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يأمر أمته بأمر إلا وكان أسبقهم إليه ، وما كان ينهاهم عن شيء إلا وكان أبعدهم عنه .

وفي الحج تجلى لديه ﷺ هذا الخُلُق السامي في مواقف عدة وصور مختلفة ، من أبرزها :

ما جاء في خطبة الوداع حين قال ﷺ : «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ، كان مسترضعاً في بني سعد ، فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع»[٢] .

ومنها : أنه ﷺ في الوقت الذي كان يحث أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ

---

(١) انظر : صحيح مسلم ، رقم : ٧٤٦ .

(٢) صحيح مسلم ، رقم : ١٢١٨ .

على بر الحج، والاشتغال بالطاعة، والخضوع لله ـ عز وجل ـ، والانكسار بين يديه ـ سبحانه ـ[١] كان ﷺ أكثرهم تقرباً وخشية، وأعظمهم ذلاً لله ـ تعالى ـ وتضرعاً إليه، وانكساراً بين يديه[٢].

ومنها: أنه ﷺ في الوقت الذي كان يحث أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ على الزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة[٣]، كان يحج على رحل رث، وقطيفة تكاد لا تساوي أربعة دراهم[٤].

ومنها: أنه ﷺ في الوقت الذي أمر الناس بترك المزاحمة، وأداء النسك بتؤدة وطمأنينة، أفاض هو ﷺ بسكينة ووقار، وكان يسير على مهله[٥].

ومنها: أنه ﷺ حين أبان للناس مشروعية الحلق والتقصير، ورغب في الحلق ودعا لفاعليه[٦]، كان هو ﷺ من المحلقين[٧].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٧١، ١٧١٨، ١٨١٩.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧٥١، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) انظر المسند لأحمد، رقم: ٦١٧٣، والحديث صحيح لغيره.

(٤) انظر: صحيح ابن ماجة، رقم: ٢٨٩٠، وصحح الحديث الألباني في صحيح ابن ماجة، رقم: ٢٣٣٧.

(٥) انظر: جامع الترمذي، رقم: ٨٨٦، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٣.

(٦) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧٢٧، ١٧٢٨.

(٧) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧٢٩، وفيه أن النبي ﷺ حلق هو وطائفة من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، وقصر بعضهم.

ومنها: أنه ﷺ حين نهىٰ أصحابه - رضي الله عنهم - عن الغلو في الدين، وأمرهم بأن يرموا الجمرة بمثل حصىٰ الخَذْف[١]، رماها هو ﷺ بمثل ما أمرهم أن يرموا به[٢].

ومن المهم تصور أن جعل النبي ﷺ من نفسه قدوة للناس كان بوعي منه وقصد لا أنه أمر حصل اتفاقاً، يدل لذلك قوله ﷺ للسقاة: «فلولا أن يغلبكم الناس علىٰ سقايتكم لنزعت معكم»[٣].

وهذا الأمر من أعظم ما دعا الناس إلىٰ حبه ﷺ، وحملهم علىٰ التأثر به، والسير علىٰ هديه، إذ هو عنوان استقامة القيادة وإخلاصها، ودليل إيمانها فيما تأمر به، وجديتها في تنفيذه.

فما أجمل أن يتأسىٰ الدعاة والمصلحون برسول الله ﷺ في هذا الخلق العظيم، ويجعلوا من أنفسهم قدوة حسنة للناس، في كافة الأعمال وبخاصة في موسم الحج، بحيث يكونون أسبق الناس إلىٰ فعل الخير الذي يأمرون به، وأبعدهم عن مواقعة ما ينهون عنه، وأشدهم حذراً منه.

ب - أمره ﷺ بالمعروف ونهيه عن المنكر:

الأمر بالخير والتحذير من الشر: رحىٰ الدين، والمهمة العظمىٰ التي

---

(١) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢٨٢، سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٩، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥٥.

(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢٩٩.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

ابتعث الله لها المرسلين، صمام أمانٍ لحياة خيِّرة، وسبيل لنجاة الفرد في الآخرة، تُنال به العزة، ويحصل عن طريقه التمكين، ولو أهمل لتعطلت الشريعة، واضمحلت الديانة، وفشت الجهالة، وعمَّت الضلالة[(١)].

وهو حتم لازم على كل قادر - حتى يقام به حق القيام -، وإن ظن أنه لا يفيد؛ لأن واجبه الأمر والنهي لا القبول، كما قال - تعالى -: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال - سبحانه - لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦][(٢)]، أمر الله - تعالى - به رسوله ﷺ فقال: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف:١٩٩]، ووصفه - سبحانه - به فقال: ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن تأمل حياته ﷺ وجد أنه أمضاها في بيان الخير، والحث على إتيان ما ينجي، وتجلية الشر، والترهيب مما يردي، وفي موسم الحج لم يخرج حاله ﷺ عن ذلك؛ إذ أرشد الحجيج إلى ما يقوم به نسكهم، ويصلح لهم دنياهم، وينجيهم عند العرض على ربهم، وحذرهم من الضد من ذلك، **ولعل من أجلى ما أمر به ﷺ ونهى عنه ما يلي:**

دلالته ﷺ لرجل - سمعه يهل بالحج عن غيره، وهو لم يحج عن نفسه -

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي: ٢/ ٣٠٦.

(٢) انظر: شرح مسلم للنووي: ٢/ ٢٣، الديباج للسيوطي: ١/ ٦٥.

لما هو أولى في حقه، كما جاء في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -: «أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: لبيك عن شبرمة، قال: من شبرمة؟، قال: أخ لي أو قريب لي، قال: حججت عن نفسك؟ قال: لا. قال: حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة»[١].

ومنها: إنكاره ﷺ على من تأخر في الحل من الإحرام من أصحابه ممن لم يسق الهدي - رضي الله عنهم -، وغضبه لذلك[٢]، وأمره ﷺ لهم قائلاً: «فحلُّوا»، فاستجابوا لذلك - رضي الله عنهم -، فحلُّوا وسمعوا وأطاعوا[٣].

ومنها: أنه ﷺ «مرَّ وهو يطوف بالكعبة بإنسان ربط يده إلى إنسان بسير أو بخيط أو بشيء غير ذلك، فقطعه النبي ﷺ بيده، ثم قال: قده بيده»[٤].

ومنها: إنكاره ﷺ العملي على الفضل - رضي الله عنه - النظر إلى الظُّعُن اللاتي كن يجرين[٥]، كما في حديث جابر - رضي الله عنه -

(١) سنن أبي داود، رقم: ١٨١١، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٥٩٦.
(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١١.
(٣) صحيح البخاري، رقم: ٧٣٦٧، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٦.
(٤) صحيح البخاري، رقم: ١٦٢٠.
(٥) الظُّعُن: النساء، واحدتها: ظعينة، وأصل الظعينة: الراحلة التي يرحل ويظعن عليها، أي: يسار، وقيل للمرأة: ظعينة؛ لأنها تظعن مع الزوج حيثما ظعن، انظر: النهاية لابن الأثير: ١٥٧/٣.

الطويل قال: «وأردف الفضل بن عباس، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً، فلما دفع رسول الله ﷺ مَرَّت به ظُعُن يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحوَّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحوَّل رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، يصرف وجهه من الشق الآخر»(١)، وإنكاره ﷺ عليه النظر إلى الخثعمية، كما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كان الفضل رديف النبي ﷺ فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر...»(٢).

وفي عصرنا نرى في أوساط الحجيج: المنكرات شائعة، والمخالفات متفشية، وعامتها نابع عن جهل وقلة معرفة، لا عن سوء نية وخبث طوية، ولذا فَهُم بحاجة إلى من يعلمهم الأحكام برفق، ويدعوهم بإحسان، ويرغبهم في الخير بحكمة، ويحذرهم من الشر بحنان.

ومهما عظمت جهود العلماء والدعاة في هذا السبيل فلن تكفي للقيام بالحد الواجب؛ نظراً لضخامة شيوع المنكر، وغربة المعروف وأهله في أوساط جُلِّ الحجيج، ولذا فلا بد من قيام كل حاج - رأى تركاً لواجب أو مواقعة لمحرم - بدوره في هذا السبيل، امتثالاً لقوله ﷺ: «من رأى منكم

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.
(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٨٥٥.

منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[١]، فكن ـ يا رعاك الله ـ ممن يغضب لله إذا انتهكت محارمه، ويسعى بصدق لإحياء هذه الفريضة الغائبة، فإنه «من سَنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سُنَّة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٢].

ج ـ تواضعه ﷺ للناس:

التواضع: سيد الأخلاق، ومصيدة الشرف، ومن أسباب رفعة الله ـ تعالى ـ للعبد، كما جاء في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعا: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٣]، وقد أمر الله ـ سبحانه ـ به نبيه ﷺ فقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، فامتثل ﷺ أمر ربه، فبلغ في التواضع منزلة لا يطاوله فيها أحد من الخلق، فكان يخدم نفسه، ويعمل في خدمة أهله في بيته، ويخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويحمل حاجته، ويسلم على الصبيان ويداعبهم، ولا يتميز على أصحابه بشيء، ولا يدعوه أحمر ولا أسود إلا

(١) صحيح البخاري، رقم: ٢١٧٢، صحيح مسلم، رقم: ٤٩، واللفظ له.
(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٠١٧.
(٣) صحيح مسلم، رقم: ٢٥٨٨.

أجابه[١]، وكان يقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[٢]، وكانت الأَمَة المملوكة تأتيه، فتأخذ بيده، فينطلق معها حيث شاءت حتى يقضي حاجتها[٣]، هذا مع نهيه ﷺ الشديد لأُمَّته عن الغلو فيه، ورفعه فوق مكانته التي اختارها ربه ـ تعالى ـ له، ومن ذلك قوله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»[٤].

وفي الحج تجلى تواضعه ﷺ في قيادته للناس من خلال مواقف وصور شتى، من أبرزها:

حجه ﷺ على رحل رثٍّ وقطيفة لا تكاد تساوي أربعة دراهم[٥].

ومنها: إباؤه ﷺ التميز عن الناس بشيء، ومن أجلى ما ظهر فيه ذلك: رفضه ﷺ أن يُخصَّ ـ دون الناس ـ بماء لم تجعل فيه الأيدي، وقوله ﷺ لعمَّه العباس ـ رضي الله عنه ـ حين عرض عليه ذلك: «لا حاجة لي فيه، أسقوني مما يشرب منه الناس»[٦].

(١) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ٦٧٦، ٦٠٧٢، ٦٢٤٧، شرح السنة للبغوي: ٣٦٧٥، وإسناده صحيح.

(٢) شرح السنة للبغوي: ٣٦٨٣، وهو حديث صحيح.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٦٠٧٢.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ٣٤٤٥.

(٥) انظر: سنن ابن ماجة رقم: ٢٨٩٠، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٣٧.

(٦) المسند لأحمد، رقم: ١٨١٤، وهو حديث صحيح، وانظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٣٦.

ومنها: إردافه ﷺ لأسامة بن زيد - رضي الله عنهما - من عرفة إلى مزدلفة أمام الخلق، وهو من الموالي[١].

ومنها: وقوفه ﷺ لامرأة من آحاد الناس، يستمع إليها، ويجيب عن سؤالها[٢].

ومنها: تمكن كل أحد من الوصول إليه، وقضاء بغيته منه بيسر، إذ لم يكن ﷺ يتخذ حُجَّاباً يصرفون الناس عنه، ويمنعونهم من مقابلته، والتحدث إليه[٣].

ومنها: عدم ترفعه ﷺ عن نحر هديه، إذ نحر منها بيده الشريفة ثلاثاً وستين بدنة[٤]، مع أنه ﷺ كان بإمكانه الإنابة في ذلك.

فكسب ﷺ بذلك التواضع الجم قلوب الناس وثقتهم ،ونال محبتهم، فما أحوج طلبة العلم والدعاة في الحج اليوم إلى التأسي به ﷺ في هذا الخُلُق العظيم، ليتمكنوا من تحقيق المزيد من خفض الجناح، ولين الجانب مع الناس، وبخاصة مع ضعفائهم، وذوي الحاجة منهم، ومع الأعاجم،

---

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٤.

(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٣٣٥.

(٣) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢٧٤، سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٣٥، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٦١.

(٤) انظر: سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٧٤، وصحح الحديث الألباني في صحيح ابن ماجة، رقم: ٢٤٩٤.

فإن ذاك رأس التواضع، كما أوضح ابن المبارك - رحمه الله - فقال: «رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا؛ حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل»[١]، كما هو مدخل الدعاة وسبيلهم لنيل مودة الحجيج، والحصول على ثقتهم، وبالتالي تقبلهم لما يقولون، وأخذهم عنهم.

د - رحمته ﷺ بالناس:

الإسلام دين الرحمة، وشريعته مبنية على العطف والشفقة، في أصولها وفروعها[٢]، ولذا فمن البدهي أن النبي ﷺ لم يبعث إلا رحمة، كما قال - تعالى - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكما أخبر هو ﷺ عن نفسه، فقال: «إنما بعثت رحمة»[٣]، وقال ﷺ: «أنا محمد... ونبي التوبة، ونبي الرحمة»[٤]، فكان ﷺ مع الناس كما وصفه ربه: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، إذ عمَّت رحمته، واتسعت شفقته، وعظمت رأفته، وانتشر عطفه، حتى صار أرحم الناس بالناس، بل شهدوا له ﷺ بأنه أرحم بهم من أنفسهم، كما في حديث أميمة - رضي الله عنها - قالت: «بايعت رسول الله ﷺ في نسوة، فقال لنا:

(١) إحياء علوم الدين للغزالي: ٣/ ٣٤٢.
(٢) انظر: الرياض الناضرة للسعدي: ٦١ وما بعدها.
(٣) انظر: صحيح مسلم، رقم: ٢٥٩٩.
(٤) صحيح مسلم، رقم: ٢٣٥٥.

فيما استطعتن وأطقتن. قلت: الله ورسوله أرحم بنا منا بأنفسنا»[(١)]، وقال قائلهم واصفاً له ﷺ: «كان رسول الله رحيماً»[(٢)]، وقال آخر: «ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»[(٣)]، وفي رواية: «بالعباد»[(٤)]، فأثمر ذلك تفاني الناس في محبته ﷺ، وتسابقهم في طاعته من جهة، وفي المقابل: سهولة توجيهه إياهم، ويسر قيادته لهم.

وفي الحج نرى رحمته ﷺ في قيادة الناس متبدية في أشكال متنوعة، من أبرزها:

إلزامه ﷺ لمن لم يسق الهدي من أصحابه-رضي الله عنهم-بالحلّ الكامل من الإحرام، والذي يتضمن إتيان النساء، ولبس الثياب، ومس الطيب، رحمة بهم وتيسيراً عليهم[(٥)].

ومنها: جمعه ﷺ لصلاتي الظهر والعصر في عرفات[(٦)]، وتأخيره

---

(١) انظر: جامع الترمذي، رقم: ١٥٩٧، وقال حسن صحيح، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٣٠٠.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٦٢٨.

(٣) انظر: صحيح مسلم، رقم: ٢٣١٦.

(٤) انظر: شرح النووي لمسلم: ١٥/٧٦، وقال السيوطي في الجامع الصغير، رقم: ٣٥١ عن الروايتين: وكل منهما صحيح واقع

(٥) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٣، ٢١٣١.

(٦) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

لصلاة المغرب حين أفاض إلىٰ مزدلفة[١] حتىٰ لا يشق علىٰ الناس بتعدد النزول، ويتمكن الحاج من إناخة بعيره ووضع متاعه في الموضع الذي سيَبِيتُ فيه.

ومنها: إذنه ﷺ للضَعَفة في الإفاضة من مزدلفة قبل الناس ليلاً حين يغيب القمر، حتىٰ يتمكنوا من أداء أعمال يوم النحر قبل الناس؛ تخفيفاً عليهم، ووقاية لهم من الزحام[٢].

ومنها: تيسيره ﷺ علىٰ الناس في التقديم والتأخير في أعمال يوم النحر، وقوله لكل من سأله ﷺ عن ذلك: «افعل ولا حرج»[٣].

ومنها: تخفيفه ﷺ علىٰ أصحاب الحاجات، كإذنه للعباس - رضي الله عنه - بأن يبيت بمكة ليالي منىٰ؛ من أجل سقايته الحاج[٤]، وإذنه لرعاة الإبل بأن يجمعوا رمي يومين بعد يوم النحر، فيرمونه في أحدهما[٥].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٣٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٦٧.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٨٣.

(٤) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧٤٥.

(٥) انظر: جامع الترمذي، رقم: ٩٦٨، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٦٣، قال ابن القيم في الزاد ٢/ ٢٩٠: «وإذا كان النبي ﷺ قد رخص لأهل السقاية، وللرعاة في البيتوتة، فمن له مال يخاف ضياعه، أو مريض يخاف من تخلفه عنه، أو كان مريضاً لا تمكنه البيتوتة، سقطت عنه بتنبيه النص علىٰ هؤلاء، والله أعلم».

ومنها: إذنه ﷺ بالنيابة عمَّن وجب عليه الحج، ولا يستطيع بَدَنُه تحمل مشقة أدائه(١).

ومنها: تركه ﷺ لفعل الأفضل في أحيانٍ، رحمة بالناس ورفقاً بهم، كركوبه ﷺ في الطواف والسعي، واستلامه الحجر بمحجن، وتركه تقبيله واستلامه باليد، والمشي في الطواف والسعي، وذلك أفضل؛ لكي لا يُصْرَف الناس عنه، ويُضْرَبُوا بين يديه(٢).

ومنها: حُنُوُّه ﷺ على المرضى، وعيادته لهم، وإرشاده إياهم إلى ما هو الأخف في حقهم، والأيسر عليهم(٣).

فإذا أردت نيل رحمة الله ـ تعالى ـ في هذا الموسم العظيم «موسم الرحمة والإحسان» فأشفق على الضعفاء، واعطف عليهم، فإن «الراحمون يرحمهم الرحمن»(٤)، و «من لا يَرحم لا يُرحم»(٥)، و«لا يرحم الله من لا يرحم الناس»(٦)، «وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»(٧).

---

(١) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٣٣٥، المسند لأحمد رقم: ١٨١٢، وهو حديث صحيح.

(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ٢٢١٧.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٤٦٩٩، ٤٨٥٣، ٥٨٩٦.

(٤) جامع الترمذي، رقم: ١٩٢٤، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني، رقم: ١٥٦٩.

(٥) صحيح البخاري، رقم: ٥٩٩٧.

(٦) صحيح البخاري، رقم: ٧٣٧٦.

(٧) صحيح البخاري، رقم: ١٥٨٤.

واحذر - إن أردت النجاة - أن يُبعَد عنك العطف، وتنزع منك الرحمة والشفقة؛ إذ «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[١]، عافانا الله ورحمنا وإياك.

هـ- إحسانه ﷺ إلى الناس:

حين تزهد النفس البشرية بمتع الحياة وملذاتها لا يقابل الإنسان مشقة، ولا يجد غضاضة في الإحسان بها إلى الخلق، ووقوع ذلك من المرء سبيل للقضاء على العداوة والبغضاء بينه وبين بقية أفراد المجتمع، وتبديلهما بمحبة عميقة ومودة خالصة؛ نظراً لكون النفس البشرية جبلت على حب الإحسان، وتثمين صاحبه، والخضوع لِمُسْدِيه، كما قال - تعالى -: ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [**فصلت**: ٣٤].

والمتأمل في حياة النبي ﷺ يجد بجلاء جمعه ﷺ بين غاية الزهد وكمال الإحسان، إذ في الوقت الذي كانت تمر عليه ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في بيته نار، إنما طعامه وأهل بيته الأسودان: التمر والماء[٢]، كان ﷺ أجود الناس[٣]، وكان يعطي عطاء مَن لا يخشى الفقر[٤].

---

(١) جامع الترمذي، رقم: ١٩٢٣، وقال حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٥٦٨.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٢٥٦٧.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٦.

(٤) انظر: صحيح مسلم، رقم: ٢٣١٢.

ويقول: «لو كان لي مثل أُحُد ذهباً لسرني ألاَّ تمر عليَّ ثلاث ليال وعندي منه شيء، إلا شيئاً أرصده لدين»، وما ذاك منه ﷺ إلا لأن قلبه تعلق بالله، وانقطع لأمر الآخرة، وزهد بالدنيا وأعرض عنها، حتى صارت لا تعدل عنده جناح بعوضة.

وفي الحج نجد أن إحسانه ﷺ أثناء قيادته للناس لا يُحد، إذ ما أنت متأمل في جانب إلا وترى إحسانه فيه بارزاً، وبما أن **حصر دلائل إحسانه ﷺ في كافة الجوانب أمر يطول وليس بغاية، فسيقتصر فيما يلي على أمثلة لذلك:**

إحسانه ﷺ إلى من أبْطَأَ في الخروج من بلده، وهو يريد أداء النسك معه، إذ مكث في ذي الحليفة يوماً كاملاً ينتظر من يريد اللحاق به[1].

ومنها: إكثاره ﷺ في الموسم من البذل والعطاء، إذ قسم في المساكين بُدْنَه المائة كلها: لحومها وجلودها وجلالها[2]، وقسم الصدقة على الناس في أكثر من موضع[3].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٥١، السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٢١٥-٢١٨، زاد المعاد لابن القيم: ٢/ ١٠٢-١٠٦.

(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٣١٧.

(٣) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٦٧٩، سنن أبي داود، رقم: ١٦٣٣، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٤٣٨.

ومنها: استجابته ﷺ لرغبات الناس، وتحقيقه لمطالبهم؛ تطييباً لنفوسهم ومراعاة لخواطرهم(١).

ومنها: إحسانه ﷺ إلى أسامة بن زيد والفضل بن العباس - رضي الله عنهم -، بإردافهما خلفه على راحلته خلال التنقل بين عرفة ومزدلفة ومنى(٢).

ومنها: إحسانه ﷺ إلى الضعفاء من خلال الوصاية بهم في خطبه(٣)، وتعليمهم، والتيسير عليهم، وإرشادهم إلى ما هو الأخف لهم(٤).

ومنها: حرصه ﷺ على نجاة أمته وقبول الله لها، إذ ألحَّ على الله بالدعاء لها بالمغفرة عشية عرفة وفي مزدلفة(٥)، وحين طلب أحدهم الدعاء منه ﷺ عمَّم دعاءه فقال: «غفر الله لكم»(٦).

(١) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم ١٥١٨، ١٦٨٠، المسند لأحمد، رقم: ١٥٩٧٢، وإسناده حسن، ورقم: ٢٧٢٩٠، من حديث معمر، وأفاد الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/ ٢٦١ بأن فيه من لم يوثق ولم يجرح.

(٢) انظر صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٤.

(٣) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٤) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٤٨٥٣، صحيح مسلم، رقم: ١٢٠٧.

(٥) انظر: المسند لأحمد، رقم: ١٦٢٠٧، وإسناده ضعيف، وظاهر صنيع ابن حجر في القول المسدد في الذب عن المسند: ٣٥ - ٣٨ تقويته بمجموع طرقه.

(٦) المسند لأحمد، رقم: ١٥٩٧٢، وهو حديث حسن.

ومنها: تكراره ﷺ للبلاغ، وحرصه على وضوح البيان حتى يوعى عنه ويفهم[١].

ومنها: حرصه ﷺ على تجنيب أصحابه - رضي الله عنهم - الفتنة، وإبعادهم عن مواطن التهمة، ومن دلائل ذلك: لَيُّه ﷺ لعنق الفضل - رضي الله عنه - لما أخذ ينظر إلى الخثعمية، وحين سأله عمُّه العباس - رضي الله عنه - عن سبب ذلك قال ﷺ: «رأيت شاباً وشابة، فلم آمن الشيطان عليهما»[٢]، وقوله ﷺ في مسجد الخيف للرجلين اللذين صلَّيا في رحالهما، ثم جاءا إلى المسجد، وهو ﷺ يصلي بالناس، فجلسا في مؤخرة المسجد، ولم يدخلا مع الناس في الصلاة: «فلا تفعلا، إذا صليتما في رحالكما ثم أتيتما مسجد جماعة فصلِّيا معهم، فإنها لكما نافلة»[٣].

فإن كنت تطمع في نيل محبة الله، وتحصيل فضله وإنعامه، فتخلَّقْ بخُلُق رسوله ﷺ، فأحسن عملك، وجُدْ في حَجِّك على الضعفاء والمحتاجين، بما تستطيع من علم وجاه ومال وقوة ودابة ونحوها؛ فإن الله - تعالى - يقول: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]،

---

(١) انظر: جامع الترمذي، رقم: ٦١٦، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٥١٢، المسند لأحمد، رقم: ١٨٩٨٩، وسنده صحيح.

(٢) جامع الترمذي، رقم: ٨٨٥، وقال حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٢.

(٣) جامع الترمذي، رقم: ٢١٩، وقال حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٨١.

ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وإن كنت تأمل في أن يكون حجك مبروراً، وذنبك مغفوراً، وتدخل الجنة، فعليك بإطعام المساكين، والزم حسن الخلق؛ لأن الذي أخبر بأن «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[1]، حين سئل: ما بِرُّ الحج؟ قال: «إطعام الطعام وطيب الكلام»[2].

و ـ صبره ﷺ على الناس:

الصبر: زاد المتقين، وعدة الداعين، وبوابة التمكين، وكنز من كنوز الخير، لا يُظفر بالنصر إلا معه، ولا تُنال الإمامة إلا به، ولا تُستَطَاع القيادة بدونه؛ لأنه يكبح النفس عند الغضب، ويلجمها عند الطيش، ويثمر المحبة، ويقوي العزيمة، وينضج الفكرة، ولذا كان خير ما أعطي العبد، كما جاء في الحديث المرفوع: «ومن يصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[3]، وقد استوعب هذا الأمر الفطناء، وفهمه القادة العظماء، فهذا فاروق الأمة ـ رضي الله عنه ـ يقول: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»[4]، وهذا علي ـ رضي الله عنه ـ يقول: «الصبر مطية لا تكبو»[5].

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٧٧٣، صحيح مسلم، رقم: ١٣٤٩.
(٢) المستدرك للحاكم: ١/٦٥٨، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/٢٠٧، و الألباني في صحيح الجامع، رقم: ٢٨١٩.
(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٠٥٣.
(٤) صحيح البخاري معلقاً، ص: ١١٢٢.
(٥) مدارج السالكين لابن القيم، ٢/ ١٥٨.

وقد كان صبر النبي ﷺ لله وبالله، فبلغ فيه المنتهىٰ، إكراهاً للنفس علىٰ الطاعة، وإلجاماً لها عن المعصية، واحتمالاً لأقدار الله وأقضيته.

وفي الحج - وهو ضرب من الجهاد[(١)] - جُمع لرسول الله ﷺ أنواع الصبر الثلاثة في آن واحد:

إذ كان أَبَرّ أصحابه - رضي الله عنهم - لله وأطوعهم له، وأعظمهم صبراً في امتثال الأوامر وفعل القربات، حتىٰ يؤديها بين يدي مولاه - سبحانه - بإخبات وخشوع، وطمأنينة وانكسار[(٢)].

كما كان ﷺ أتقاهم لله - تعالىٰ -، وأعلمهم به، وأغضبهم له، وأحفظهم لحدوده، وأبعدهم عن انتهاك حرماته[(٣)].

أما صبره ﷺ على الناس وتحمله لمشقة قيادتهم دون ملل أو سخط أو ضجر فأمر يبهر العقل، ويكفي للتدليل عليه: تصور وظائفه ﷺ وإدراك حاله في الموسم، وواقع من حج بهم.

فأما وظائفه: فقد كان ﷺ عبداً لله، حريصاً علىٰ تحقيق الكمال البشري في التذلل لله والانكسار بين يديه - سبحانه -، وأداء النُّسك علىٰ وجهه.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٨٦١.

(٢) انظر علىٰ سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٤، ١٧٥١، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) انظر علىٰ سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ١٧٧٢، ٦٣٦٧.

وكان ﷺ قائداً للناس، وراعياً لهم، ومسؤولاً عن أحوالهم، واجتماع كلمتهم.

وكان ﷺ معلماً مرشداً لتلك الأفواج الضخمة من البشر، ومربياً لها على الخير، يختلج في صدره حرص شديد على تحقيق الكمال في تبليغ الرسالة وبيان الأحكام.

وكان ﷺ أسوة للناس ومحط أنظارهم، وكل فرد منهم ينتظر ما يصدر عنه من قول أو فعل، ليعمل بمثله ويسير على منواله.

أضف إلى ذلك ما في أداء مناسك الحج نفسها من مشقة ـ وبخاصة في ذلك الوقت الذي لم يتوفر فيه شيء من سبل الراحة التي نعرفها ـ على رجل جاوز الستين من عمره، ومعه نسوته التسع وضعفاء أهل بيته، وهو راع لهم، وقائم بشؤونهم.

وأما عن واقع من حج بهم ﷺ: فقد كان عددهم كبيراً، والتباين بينهم ظاهراً، سواء أكان ذلك في قِدَم العهد بالإسلام من قربه، وما ينبني على ذلك من قوة المعرفة بالدين من ضعفها، أم في اختلاف البلدان والقبائل والأعمار والأوضاع المالية والاجتماعية، وما يترتب على ذلك من تباين المدارك والأفهام واختلاف الطبائع والميول والاحتياجات واللهجات.

أضف إلى ذلك وجود الضعفاء من المرضى والنساء والصبيان معه،

وما يتطلبه ذلك من ضرورة اللطف بهم، ومراعاة أحوالهم.

إننا حين نتصور ذلك بشكل جيد ندرك حقاً كم هو عظيم صبره ﷺ على الناس في الحج، ومقدار المشقة التي لاقاها ﷺ نتيجة قيادته لهم.

فاصبر كما صبر الرسول ﷺ؛ فإن الإيمان: «الصبر والسماحة»[١]، والله مع الصابرين، والصابر يُوفَّىٰ أجره عند ربه بغير حساب، فاجعل من صبره ﷺ نبراساً لك تهتدي به في الحج، فواظب على الطاعة، والزمها حتى تؤديها، واحذر المعصية حتى لا تقع فيها، وتحمل المشقة والعناء، وإياك والتسخط والجزع والشكوى، وخالط الناس واصبر على أذاهم؛ فإن «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»[٢]، فلا تقابلهم بكآبة وجه وعبوس جبين؛ فإن ذلك عمل ينافي الصبر الجميل.

ز- رفقه ﷺ بالناس:

تضافرت النصوص الثابتة ببيان فضل الرفق وحث العباد عليه، ومن ذلك قوله ﷺ: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»[٣]، وقوله ﷺ:

(١) المسند لأحمد، رقم: ١٩٤٣٥، والحديث صحيح بشواهده.
(٢) سنن ابن ماجة، رقم: ٤٠٣٢، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٣٢٥٧.
(٣) صحيح البخاري، رقم: ٦٠٢٤.

«إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[١]، وقوله ﷺ: «من يُحرم الرفق يُحرم الخير كله»[٢].

وما ذاك إلا لأنه رأس الحكمة، وزينة العمل، وعنوان الفقه، ومن ثمار حسن الخلق والقدرة على ضبط النفس عن الهوىٰ والغضب، يجلب المحبة والعطف، ويستدعي الرحمة، ويورث القرب من الناس، ويولد التعاون، ويزيل الضغينة والحقد، ويباعد عن الشر والقطيعة.

وقد تحلّىٰ النبي ﷺ بالرفق واللين، فكان ألطف الناس، وأكثرهم عفواً وأناة، وصفه الله بذلك فقال ـ عز وجل ـ: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وشهد له من خالطه بذلك فيصفه الواصف منهم بأنه كان «رفيقاً»[٣]، وفي رواية: «رقيقاً»[٤]، ويصفه الآخر بقوله: «كان بنا رافقاً»[٥].

وفي الحج بان رفقه ﷺ أثناء قيادته للناس من خلال مظاهر شتى، ومواقف مختلفة، منها:

عدم قسره ﷺ الناس على تلبيته، وإقراره ﷺ إياهم على ما كانوا

(١) صحيح مسلم، رقم: ٢٥٩٤.
(٢) صحيح مسلم، رقم: ٢٥٩٢، سنن أبي داود، رقم: ٤٨٠٩، واللفظ له.
(٣) صحيح البخاري رقم: ٦٢٨.
(٤) صحيح مسلم، رقم: ٦٧٤.
(٥) صحيح البخاري، رقم: ٢٣٣٩، صحيح مسلم، رقم ١٥٤٨.

يزيدون فيها وينقصون[١]، وكذا حين أفاض الناس من عرفة لزم ﷺ في غالب حاله التلبية، وكان الناس يُهِلُّ مُهِلُّهم فلا ينكر عليه، ويكبر مكبرهم فلا ينكر عليه[٢]، وفي ذلك من الرفق ما فيه.

ومنها: استظلاله ﷺ وركوبه في الطريق إلى الحج، وأثناء التنقل بين المشاعر، ونحو ذلك من جوانب اليسر التي لو فعل ﷺ خلافها لكان على العباد في التأسي به فيها مشقة عظيمة[٣].

ومنها: ركوبه ﷺ أثناء أداء بعض المناسك كالطواف والسعي؛ خشية أن يُدفع الناس عنه، ويُضرَبوا بين يديه[٤].

ومنها: بروزه ﷺ للناس طوال الموسم؛ لكي يتمكنوا من سؤاله عما يشكل عليهم، ولا تكون عليهم مشقة أثناء تأسيهم به وأخذهم عنه.

ومنها: تخفيفه ﷺ على الناس، وعدم تكليفهم من الأمر فوق ما

---

(١) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، سنن أبي داود، رقم: ١٨١٣، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٥٩٨، وطالع: زاد المعاد لابن القيم: ٢/ ١٦١.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٥٩، ١٦٨٦، ١٦٨٧.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٦٦، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، وقد اختلف في أي الأفضل الركوب أو المشي أثناء التنقل بين المشاعر، والظاهر أن الركوب في الجملة أفضل لفعل رسول الله ﷺ، ولما فيه من زيادة النفقة، وإراحة الجسد للتضرع والدعاء، والله أعلم، انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٢/ ٤٠.

(٤) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢٧٤.

يطيقون، سواء أكان من جهة أعمال النسك، أم من جهة قيادته للحجيج وتوليه أمرهم، وهذا جلي لمن تأمل سيرته ﷺ ونظر في حاله أثناء الحج[(١)].

ومنها: سكينته ووقاره أثناء أدائه للنُّسك وتنقله بين المشاعر، وأمره للناس بذلك؛ رفقاً بهم، وخوفاً عليهم من أن يصيبهم من جرَّاء ذلك مشقة أو أذى[(٢)].

ومنها: تقصيره ﷺ خطبة يوم عرفة[(٣)].

ومنها: عدم طوافه ﷺ بالكعبة بعد طواف القدوم حتى رجع من عرفة[(٤)]، واستقراره ﷺ - على الصحيح - بمنى في أيام التشريق، وعدم خروجه منها إلى الحرم إلا حين أراد الوداع، مع ما للطواف من فضل ومكانة، وذلك غاية في الرفق ونهاية في اليسر[(٥)].

ومنها: اختياره ﷺ للأيسر دوماً، كأمره ﷺ من لم يسق الهدي من

---

(١) انظر على سبيل المثال: سنن أبي داود، رقم، ١٩٠٥، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٦٧٦.

(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، سنن أبي داود، رقم: ١٩٦٦، وحسن الحديث الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٧٢٩، جامع الترمذي، رقم: ٨٨٦، وقال حسن صحيح، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٣.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٦٠.

(٤) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٥، السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٣٣٤.

(٥) انظر: حجة الوداع لابن حزم: ١٢٤، زاد المعاد لابن القيم: ٢/ ٣١٠-٣١١، السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٤٠٤.

أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بالحلّ، وجمعه ﷺ للصلوات في عرفة ومزدلفة، وقصره للصلاة بمنى[١].

ومنها: أمره ﷺ لأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بأن ينحروا هديهم في رحالهم، كما في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «نحرت ههنا، ومنى كلها منحر؛ فانحروا في رحالكم»[٢]، وإذنه ﷺ للظُّعُن بأن يرموا قبل طلوع الشمس؛ لأنهن أثقل حالاً، وللخوف عليهن من مزاحمة الناس وحَطْمِهم[٣].

ومنها: حثه ﷺ الناس على تعجيل الرحيل بعد قضاء النُّسك؛ رفقاً بهم وإحساناً إلى أهاليهم؛ لكون السفر قطعة من العذاب، إذ قال ﷺ لأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ: «إذا قضى أحدكم حجه فليعجل الرجوع إلى أهله؛ فإنه أعظم لأجره»[٤].

ومنها: أمره ﷺ لأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بالرفق بأنفسهم، ومن شواهد ذلك قوله ﷺ حين رأى رجلاً يسوق بدنة وهو يمشي:

---

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٥٦، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٦٧٩، سنن أبي داود، رقم: ١٩٤٢، وقال ابن كثير في السيرة: ٤/ ٣٦٤ بعد إيراده له: تفرد به أبو داود، وهو إسناد جيد قوي، رجاله ثقات، و انظر أيضا: زاد المعاد لابن القيم: ٢/ ٢٥٢، السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٣٦٣.

(٤) المستدرك للحاكم: ١/ ٦٥٠، السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ٢٥٩، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم: ٧٣٢.

«اركبها. فقال: إنها بدنة. فقال: اركبها. قال: إنها بدنة. قال: اركبها، ويلك - في الثالثة أو في الثانية -»[١]، وقوله ﷺ: «اركبوا الهدي بالمعروف حتىٰ تجدوا ظهراً»[٢]، وقوله ﷺ عند رمي الجمرة: «يا أيها الناس، لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يُصِب بعضكم بعضاً، وإذا رميتم الجمرة فارموها بمثل حصىٰ الخَذْف»[٣]، وقوله ﷺ لعمر - رضي الله عنه -: «يا عمر، إنك رجل قوي، لا تزاحم علىٰ الحَجَر فتؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله فهلل وكبر»[٤].

ومنها: مواساته ﷺ للنفوس، ومراعاته للخواطر، كما في قوله ﷺ لأصحابه - رضي الله عنهم - لما وقع الأمر علىٰ خلاف ما يحبون من موافقته والتأسي به: «إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أني معي الهدي لحللت»[٥]، أي: لو أعلم أن هذا الأمر يشق

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٦٨٩.

(٢) صحيح ابن حبان، رقم: ٤٠١٥، وإسناده صحيح، والمراد بالظهر: الدابة التي يركب عليها، انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٣/ ١٦٦، القاموس المحيط للفيروزآبادي، مادة (ظهر).

(٣) المسند لأحمد، رقم: ١٦٠٨٧، وإسناده حسن لغيره، وحسن الحديث الألباني في صحيح الجامع، رقم: ٧٨٩٠.

(٤) المسند لأحمد، رقم: ١٩٠، وهو حديث حسن، في إسناده راوٍ لم يُسم، وقد سماه ابن عيينة فذكر رجلاً نبيلاً كبير القدر، قاله ابن كثير في السيرة: ٤/ ٣١٨، وانظر: السنن الكبرىٰ للبيهقي: ٥/ ٨٠.

(٥) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٧٢٣٠.

عليكم، لكنت تركت سوق الهدي حتىٰ أحل كما تحلون[١]، وقوله ﷺ للصعب بن جثامة - رضي الله عنه - حين أهدىٰ إليه عجز حمار فرده: «إنا لم نردَّه عليك إلا أنَّا حُرُم»[٢]، وقوله ﷺ لأصحاب أبي قتادة - رضي الله عنهم - حين صاد وهم محرمون، وهو حل لم يُحرم، بدون إشارة منهم أو عون فارتابوا في الأمر: «هل منكم أحد أَمَره، أو أشار إليه بشيء؟، قالوا: لا. قال: فكلوا ما بقي من لحمها»، وفي رواية: قال: «هل معكم منه شيء، قالوا: معنا رجله، فأخذها رسول الله ﷺ فأكلها»[٣].

وفي عصرنا يكثر في الحجيج من يجهل أحكام النُّسك، كما يكثر الأعاجم، والضعفة، وكبار السن ونحوهم ممن يحتاجون إلى من يرفق بهم في كل شيء: قيادة وتعليماً، نصحاً وتوجيهاً، عشرة ومخالطة، بل وخدمة وإحساناً.

فأحسن حديثك إليهم، وألن لهم جانبك، وتلطف في فعلك، واختر

(١) انظر: السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٣٣٣.
(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٨٢٥، صحيح مسلم، رقم: ١١٩٣.
(٣) صحيح مسلم، رقم: ١١٩٦، إلا أن في بعض ألفاظه أن ذلك كان عام الحديبية، وهو ما جزم به ابن القيم في الزاد: ٢/ ١٦٥ و ٢/ ٣٠٤، وفي أخرىٰ أن رسول الله ﷺ خرج حاجاً، وخرجوا معه، فيحتمل أنه أراد بحاج: معتمراً، ومن ثم تتحد القصة وتتفق الروايات، ويحتمل تعدد القصة، ويجعل ذلك أكثر احتمالاً ما جاء في سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٩٣، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٥٠٩، أن النبي ﷺ في قصة الحديبية لم يأكل منه حين أخبره أبو قتادة - رضي الله عنه - بأنه صاده له، والله أعلم.

الأسهل عليهم، واملك غضبك، واترك العنف، وإياك والفظاظة والغلظة؛ فإنها منافية للرفق، وقد جاء في الحديث المرفوع: «من أُعطي حظه من الرفق فقد أُعطي حظه من الخير، ومن حُرم حظه من الرفق فقد حُرم حظه من الخير»[١] .

ح- أمور أخرى في قيادته ﷺ للناس في الحج:

هناك العديد من الأمور التي فعلها النبي ﷺ في الحج، وكان لها أبلغ الأثر في نجاح قيادته، وحسن تعامله مع الناس، وتأثرهم به، وقبولهم لما يصدر عنه، ومن أبرزها:

* تنظيم الناس:

نظَّم النبي ﷺ الناس في منىٰ ورتَّبهم، وأنزل كلاً منهم منزله، وجعل أقرب الناس إليه الأفضل فالأفضل، كما جاء في حديث عبد الرحمن بن معاذ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «خطب النبي ﷺ الناس بمنىٰ، ونَزَّلهم منازلهم، فقال: لينزل المهاجرون ها هنا، وأشار إلىٰ ميمنة القبلة، والأنصار ها هنا، وأشار إلىٰ ميسرة القبلة، ثم لينزل الناس حولهم»[٢]، وفي رواية: «ثم أمر المهاجرين فنزلوا في مُقَدَّم المسجد،

---

(١) جامع الترمذي، رقم: ٢٠١٣، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٦٣٧.

(٢) سنن أبي داود، رقم: ١٩٥١، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٧١٩.

وأمر الأنصار فنزلوا من وراء المسجد، ثم نزل الناس بعد ذلك»[١].

وفي هذا الزمان: يجد الانسان أن كثيراً من مشكلات الحجيج - أثناء أداء النُّسك والتنقل بين المشاعر - ناتجة عن تقديم طائفة منهم لمصالحها الشخصية على حساب مصلحة الآخرين، وعدم استجابة كثير منهم للتنظيم القائم أو ضعف تفاعلهم معه، فما أجدر بك - أيها الحاج - أن تجعل من نفسك قدوة حسنة للناس في ذلك، فتؤخر تحقيق رغباتك، وتترك فعل الأحظ لك إذا كان في ذلك تحقيقاً لمصلحة إخوانك.

* تشجيع خَدَمَة الناس:

شَجَّع النبي ﷺ العاملين في خدمة الناس، ويَسَّر عليهم، إذ أذن ﷺ لعمه العباس - رضي الله عنه - أن يبيت بمكة ليالي منى؛ من أجل سقايته للناس[٢]، وقال ﷺ للسقاة - لما جاء إليهم وهم يسقون ويعملون -: «اعملوا؛ فإنكم على عمل صالح...»[٣].

وبفضل الله وحده يلاحظ المرء في وقتنا: كثرة المتطوعين الذين ينهكون قواهم، ويستنفدون جُلَّ أوقاتهم في خدمة الحجيج وتوجيههم والإحسان

(١) سنن أبي داود، رقم: ١٩٥٧، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٧٢٤.
(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٧٣٤.
(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٦٣٦.

إليهم، وفي كثير من الأوقات لا يجدون ابتسامة مشرقة أو كلمة حانية، بل في أحيان: يجدون العتاب والإيذاء بدلاً من الشكر والتقدير.

فما أحسن أن تمتثل فيهم قوله ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»[1]، وأن تقتدي به ﷺ في تشجيع هذا الصنف المبارك من الناس؛ ليكون ذلك دافعاً لهم لمواصلة الخير وعدم الانقطاع عنه، إذ ذلك يزيدهم قوة إلىٰ قوتهم، ونشاطاً إلىٰ نشاطهم.

* **مراعاة الحقوق:**

حرص النبي ﷺ علىٰ حفظ حقوق الآخرين وحمايتها من الضياع، ومن ذلك: إباؤه ﷺ علىٰ عائشة ـ رضي الله عنها ـ بناء بيت له يظله بمنىٰ، وقوله ﷺ لها: «إنما منىٰ مناخ مَن سَبَق»[2]، وتوقفه ﷺ عن مساعدة سقاة الناس من زمزم في سقايتهم خوفاً من أن يضيع حقهم بغلبة الناس لهم عليه، وقوله ﷺ لهم: «لولا أن تُغْلَبوا لنزلت حتىٰ أضع الحبل علىٰ هذه، يعني عاتقه»[3].

---

(١) جامع الترمذي، رقم: ١٩٥٤، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٥٩٢.

(٢) جامع الترمذي، رقم: ٨٨١، وقال حسن صحيح، المستدرك للحاكم: ١/ ٦٣٨، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأورده ابن كثير في السيرة: ٤/ ٣٩٨، وقال عقبه: وهذا إسناد لا بأس به، وقال مخرج زاد المعاد: ٢/ ٢٦٧ وسنده قابل للتحسين، وضعفه بعضهم ـ وهو الظاهر ـ؛ لأن مدار الحديث علىٰ مُسَيْكَة، وهي ـ كما قال ابن خزيمة في صحيحه: ٤/ ٢٨٤ ـ لا تعرف بعدالة ولا جرح.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٦٣٦.

واليوم تضيع الكثير من حقوق الحجيج، وبخاصة ضعفاؤهم على أيدي عبدة الدنيا والظلمة من المطوفين وبعض أصحاب حملات التحجيج، وطائفة من الحجاج الذين لا يرجون لله وقاراً في تلك البقاع المباركة.

فحذار من الوقوع فيما اقترفه هذا الصنف من البشر، وبادر - إن كنت قادراً - إلى النصح والتوجيه لهم أو الحسبة عليهم.

* **الشجاعة الأدبية:**

كان النبي ﷺ أرحم الناس وأكثرهم حياء[(١)]، ومع ذلك فلم يتأخر عن بيان الحق والصدع به حتى وإن كان في ذلك حرج، أو وقع الأمر على خلاف مراد من معه، والشواهد الدالة على رباطة جأشه ﷺ، وقوة شخصيته، وشجاعته الأدبية عديدة، منها:

منعه ﷺ للفضل بن عباس - رضي الله عنهما - عن استمرار النظر للفتاة الخثعمية أمام الخلق[(٢)]، حتى إن عَمَّه العباس - رضي الله عنه - استفسر عن ذلك، فقال: «يا رسول الله، لِمَ لويت عنق ابن عمك؟، قال: رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما»[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٣٥٦٢، صحيح مسلم رقم: ٢٣١٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٦٢٢٨.

(٣) جامع الترمذي، رقم: ٨٨٥، وقال حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٢.

ومنها: قوله ﷺ حين حاضت زوجه صفية - رضي الله عنها -، وظن أنها لم تطف بالبيت يوم النحر: «ما أراها إلا حابستكم»(١).

ومنها: عدم إعطائه ﷺ من الصدقة لمن سأله وهو قوي مكتسب(٢).

ولعل من أظهرها: عدم مجاراته ﷺ لرغبة أكثر أصحابه - رضي الله عنهم - ممن لم يسق الهدي وعدم حله ﷺ وبقائه على الإحرام، وقوله ﷺ لهم: «لولا هديي لحللت كما تحلون»(٣).

فإياك أن تحملك نفسك على ترك ما يجب عليك من التعليم والبيان، والنصح والتوجيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول الحق؛ فإن ذلك عجز وكسل، لا حياء وحشمة، والله - تعالى - لا يستحيي من الحق، فتأس بالرسول ﷺ، فقد كان «أشد حياءً من العذراء في خِدْرِها»(٤)، ومع ذلك كان ﷺ يغضب لله وينتقم، كما قالت عائشة - رضي الله عنها - في صفته ﷺ: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن يُنْتَهَك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل»(٥).

---

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧٧٢.

(٢) سنن أبي داود، رقم: ١٦٣٣، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٤٣٨.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٧٣٦٧.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ٣٥٦٢.

(٥) صحيح البخاري، رقم: ٣٥٦٠، صحيح مسلم، رقم: ٢٣٢٨، واللفظ له.

*** ترك تعنيف المخطئ:**

لم يكن النبي ﷺ فظاً غليظاً مع من وقع في خطأ من أصحابه - رضي الله عنهم -، بل كان ﷺ يسعىٰ بدلاً من ذلك إلىٰ تعليمه إن كان جاهلاً، والاهتمام بتعديل الخطأ وتصحيح الموقف دون التركيز علىٰ من صدر منه.

ومن دلائل ذلك:

عدم بحثه ﷺ عمَّن قال من أصحابه - رضي الله عنهم: « فنأتي عرفة تقطر مذاكيرنا المذي!»، وقيامه ﷺ بدلاً من ذلك، بالأخذ بخواطرهم، وإرشادهم إلىٰ ما هو الأَوْلىٰ في حقهم، قائلاً: «قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم، ولولا هديي لحللت كما تحلون فحلُّوا، فلو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت»[١].

ومنها: تركه ﷺ تعنيف الفضل - رضي الله عنه - حين أخذ ينظر إلىٰ الفتاة الخثعمية، ويلاحظ الظعن اللاتي كن يجرين، واكتفاؤه ﷺ بصرفه عن ذلك مع كونه - رضي الله عنه - كرر النظر مراراً[٢].

ومنها: عدم تعنيفه ﷺ للرجلين الذين صَلَّيَا في رحالهما، ولم يدخلا مع الناس في الصلاة، واكتفاؤه بتعليمهما ما يدفع الريبة عنهما، وما هو

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٧٣٦٧.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٥١٣، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

الأَوْلىٰ في حقهما(١).

ومنها: عدم تعنيفه ﷺ للرجلين اللذين سألاه من الصدقة وهما قويان مكتسبان، وقيامه ﷺ بدلاً من ذلك بجعلهما هما اللذان يختاران عدم الأخذ منها(٢)، وهذا منه ﷺ نهاية في الحلم، وغاية في الحكمة

فأين هذا من قوم ـ من طلبة العلم والدعاة ـ حظُّهم من النصح: التعنيف، ومن البيان: التوبيخ، ومن التعليم: التسفيه، فيزداد المخطئ إصراراً علىٰ خطئه، وإغراقاً في غيّه، ويتمنىٰ أنه لم يفعل ولم يسأل، وقد يعزم علىٰ اجتناب أهل العلم والخير، فلا يريد رؤيتهم ولا صحبتهم! فليت هؤلاء لم يتكلموا إذ رأوه فعل ما فعل، ولم يجيبوه إذ سأل عما أشكل، ألا فليتق الله عبد أعطاه الله علماً بدينه، وحَمَّلَه بيانه لخَلْقه، ورسم له هدياً من سيرة نبيه؛ ليتأسىٰ به ويقتدي.

*** اجتناب التكلف:**

لعل من أعظم عوامل نجاح النبي ﷺ في قيادة الناس في الحج: البساطة، وترك التعقيد، والبعد عن التكلف، والوضوح في كل شيء.

---

(١) جامع الترمذي، رقم: ٢١٩، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٨١.

(٢) انظر: سنن أبي داود، رقم: ١٦٣٣، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٤٣٨.

ومن تأمل هديه ﷺ في قيادة الناس في الحج وجد أن غاية الناس كانت بينة، والقيادة محددة بارزة، والأنساك معلومة، وخط السير معروف، والزمان والمكان محددان، وهو ما جعل الناس ـ الذين قادهم ﷺ ـ على بصيرة من أمرهم، يعلم كل شخص منهم، ما الذي سيأتي، وما الذي سيدع.

فإن ولاك الله شيئاً من أمر الحجيج: فأبن لهم ما تريد، والزم الوضوح، ودع التكلف، وجنبهم الغموض.

* التودد إلى الناس:

كان النبي ﷺ ليناً، ودوداً لطيفاً، مستنير الوجه، منشرح الصدر، ما رئي أحدٌ أكثر تبسماً منه، وإذا حدَّث بحديث تبسم فيه، يداعب أصحابه، ويدخل السرور على قلوبهم[1]، ومما نقل من تودده ﷺ إلى الناس في الحج، وتلطفه معهم، ومداعبته إياهم: ما رواه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قَدِمْنا رسولَ الله ﷺ أُغَيْلِمَةُ بني عبد المطلب على حُمُرَات لنا من جَمْع، فجعل يَلْطَح أفخاذنا، ويقول: أَبَنِيَّ: لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس»[2].

---

(١) انظر: مختصر الشمائل للترمذي، رقم: ٢٠٠ـ٢٠٥، أخلاق النبي ﷺ وآدابه للأصبهاني، رقم: ١٨٠ـ١٨٢، ٢٠٧.

(٢) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٥، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥١، =

فكن - في حجك - عند لقائك للناس: حسن المُحَيَّا، هاشاً باشّاً، مستبشراً طلق الوجه، حسن القول، لطيف الفعل، تنل قبولهم، وتكسب مودتهم، ولك في ذلك من الله الأجر الجزيل والثواب الكبير.

*** الوقار وحسن السمت:**

كان النبي ﷺ في حجه - كما كان في غيره - حسن السَمْت، جميل الهيئة، بهي الطالع، مهتماً بمظهره، حتى ما رئي أحد أحسن منه؛ إذ أكرم شعره، ولبد رأسه[(١)]، وتطيب لحلّه وإحرامه بأطيب الطيب[(٢)]، واغتسل عند إهلاله[(٣)]، وقبل أن يدخل مكة[(٤)].

كما اتصف ﷺ بالوقار والرزانة، وأمسك عما لا يليق من الكلام والحركة[(٥)]، فأورثه ذلك المحبة والتقدير، ونال به الإجلال والمهابة، ومن

= ومعنى أُغَيْلِمَة: صبية، تصغير غِلْمَة جمع غُلام، وإن كان القياس أن تكون أُغَيْلِمَة تصغير أَغْلِمَة، لكن أَغَيْلِمَة لم ترد، والمراد بحُمُرات: جمع حُمُر، وحُمُر: جمع حمار، الحيوان المعروف، ومعنى يَلْطَح: يضرب ضرباً ليناًبِبطن كفه، انظر: الفائق في غريب الحديث للزمخشري: ٣/ ٧٤، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ١/ ٤٣٩، ٤/ ٢٥٠، لسان العرب لابن منظور مادة (غلم) و (حمر) و (لطح).

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٤٣٩٨.

(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١١٨٩، سنن الدارمي، رقم: ١٨٠١، واللفظ له.

(٣) انظر: جامع الترمذي، رقم: ٨٣٠، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٦٤.

(٤) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢٥٩.

(٥) انظر: سنن النسائي، رقم: ٣٠٢٤، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم: ٢٨٢٧، المسند لأحمد، رقم: ١٨١٦، وإسناده صحيح.

الشواهد على ذلك حديث الحارث بن عمرو السهمي - رضي الله عنه - قال: «أتيت رسول الله ﷺ وهو بمنى أو بعرفات، وقد أطاف به الناس، قال: فتجيء الأعراب، فإذا رأوا وجهه، قالوا: هذا وجه مبارك»[1].

فاهتم بمظهرك، واعتن بهيئتك، والزم الحشمة، وحافظ على الوقار، ولا تكثر الضحك، ولا تبالغ في المزاح؛ فإن ذلك من دواعي تقبل الناس لك وأخذهم عنك.

تلك بعض الجوانب والكمالات التي كانت لدى النبي ﷺ في الحج - أثناء تعامله مع الناس وقيادته لهم -، والتي مكنته ﷺ من كسب القلوب، ونيل المحبة والثقة، فتسارع الناس إلى طاعته، وتسابقوا إلى امتثال أمره، واجتناب نهيه، بكل تفان وإخلاص، ورغبة واختيار.

فلينظر من يرجون الإمامة في الدين موقعهم من تلك الخصال، وموقفهم من ذلك الحال، فإنه لا تمكين ولا قبول لمن لم يترسم أخلاق الأنبياء، ويحذو حذو سيد الأتقياء ﷺ.

---

(١) سنن أبي داود، رقم: ١٧٤٢، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٥٣٢.

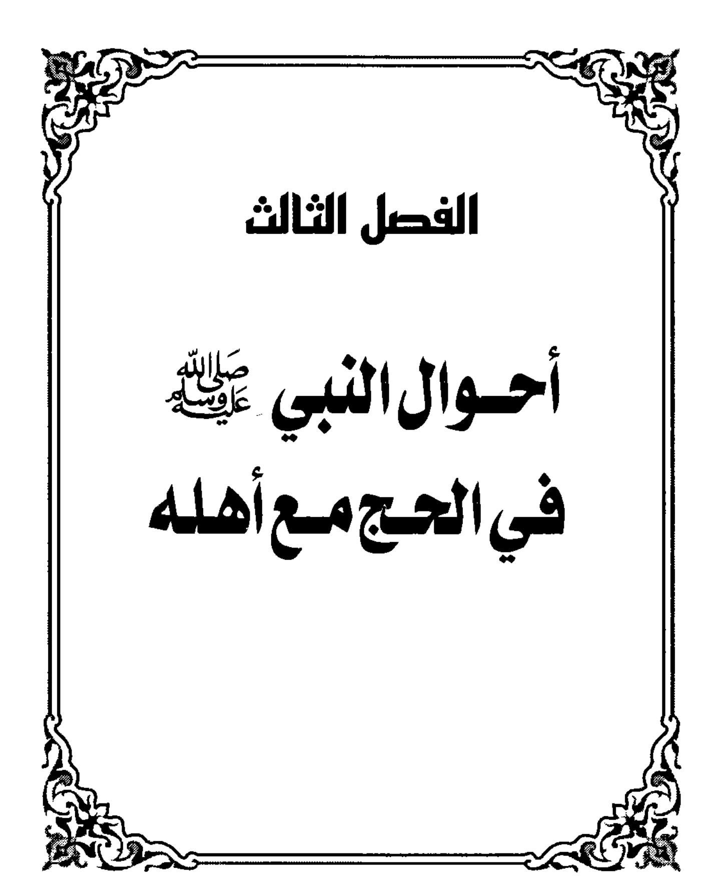

الفصل الثالث

أحـوال النبي ﷺ في الحـج مـع أهله

أحوال النبي ﷺ في الحج مع أهله

كان النبي ﷺ أرعى الخلق لقريب، وأحناهم على رحم، وأكثرهم إحساناً إلى أهل، شهد المخالطون له ﷺ بذلك، فوصفه واصفهم بأنه ﷺ كان «أبر الناس، وأوصل الناس»[(١)]، وقد كان من أعظم ما وصل به ﷺ أهله، وبر أقاربه به: دعوته إياهم إلى الخير، وحرصه على هدايتهم ونجاتهم من النار، ومن ذلك: وقوفه ﷺ بمكة على الصفا - ينذرهم مغبة الشرك - قائلاً: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب: لا أملك لكم من الله شيئا، سلوني من مالي ما شئتم»[(٢)]، وقوله ﷺ لعمِّه أبي طالب - لما حضرته الوفاة -: «أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»[(٣)].

وفي الحج تجلى بره ﷺ بأهله، وصلته لرحمه، وإحسانه إلى أقاربه في صور شتى ومشاهد مختلفة، ومن الأهمية بمكان الإشارة - قبل تعداد شيء من ذلك - إلى أن أهل بيت النبوة - رضي الله عنهم - قد شاركوا الناس فيما

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٠٧٢، وانظر: صحيح البخاري، رقم: ٣٨١٨، ٤٩٥٤، ٥٩٩٠.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ٢٠٥.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٣٨٨٤.

أفادهم به ﷺ، فضلاً عمَّا اختصهم به ﷺ من مزيد حنو ورعاية، ومن دلائل ذلك: قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ مخاطبة رسول الله ﷺ: «سمعتك تقول لأصحابك ما قلت، فمنعت العمرة»، بل إن المتأمل في أمر النُّسك يجد أن كثيراً من أحكامه منقول عنهم، وذلك لما كان لهم ـ رضي الله عنهم ـ من مزيد لصوق به ﷺ واختصاص دون الناس، ولعل من أبرز أحواله ﷺ معهم، ما يلي:

١ ـ تعليمهم أحكام النسك:

اهتم النبي ﷺ بتعليم أهل بيته أحكام النسك؛ ليصفو لهم تقرُّبهم، وتصح منهم عبادتهم، ومن دلائل ذلك:

ما جاء في حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: أهلوا يا آل محمد بعمرة في حج»[(١)]، وقوله ﷺ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ حين حاضت قبل أن تطوف بالبيت: «افعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت»[(٢)]، وقوله ﷺ لأُغَيْلِمَة بني عبد المطلب ليلة مزدلفة: «لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس»[(٣)].

---

(١) المسند لأحمد، رقم: ٢٦٥٩٠، صحيح ابن حبان، رقم: ٣٩٢٢، وإسنادهما صحيح.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢١١.

(٣) جامع الترمذي، رقم: ٨٩٣، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٩.

ولم يكن ﷺ يكتفي في تفقيههم بمجرد التوجيه المباشر لهم، بل كان يحاورهم، ويجيب عن أسئلتهم، كما يدل عليه حديث حفصة - رضي الله عنها -: «أن النبي ﷺ أمر أزواجه أن يَحلِلْن عام حجة الوداع، فقالت له: فما يمنعك؟ فقال: لبَّدت رأسي، وقلَّدت هديي، فلست أَحِلُّ حتى أنحر هديي»[1]، وفي رواية: أنها قالت: «ما شأن الناس حلُّوا، ولم تحل من عمرتك ؟ . . .»[2]، وحديث علي - رضي الله عنه - قال: «قال العباس: يا رسول الله، لِمَ لويت عنق ابن عمك ؟، قال: رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما»[3].

وفي وقتنا: نرى في الحج الجهل بمرامي النسك وأحكامه يضرب بأوتاده في أوساط الأهالي؛ نتيجة كون القلة النادرة من الناس - وللأسف الشديد - هم الذين يهتمون بتعليم أهاليهم الأحكام قبل فعلها، ويفقهونهم بحِكَم النُّسك ومقاصده، ويجيبون عن استفساراتهم، ويحلون الإشكالات التي لديهم.

فكن من هذا الصنف الفاضل الذي يرفعه عمله هذا عند ربه، ويجعله من خير الناس، كما قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٤٣٩٨.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢٢٨.

(٣) جامع الترمذي، رقم: ٨٨٥، وقال حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٢.

لأهلي»[١]، وقم بالأمر على وجهه، فإنك مؤتمن على أهلك، وراع لهم، وكل راع مسؤول بين يدي مولاه عما استرعاه، كما قال ﷺ: «كلكم راع فمسئول عن رعيته. . . ، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم»[٢]، ولك أسوة حسنة برسول الله ﷺ الذي بدأ بنذارة أهله وتعليمهم قبل الناس، امتثالاً لأمر ربه - عز وجل - في قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

٢ - إشغالهم بأمر النُّسك قبل الخروج له:

أشغل النبي ﷺ أهله بأمر النُّسك قبل خروجه إلى الموسم، ومن دلائل ذلك: قول عائشة - رضي الله عنها -: «فَتَلْتُ لهدي النبي ﷺ - تعني: القلائد - قبل أن يحرم»[٣].

فما أحرى بك أن تهتدي بالنبي ﷺ في ذلك: فتشغل نفسك وأهل بيتك بأمر النُّسك، وتعلق قلبك وقلوبهم به، قبل السفر إلى مواضعه، عزماً على أدائه، وتأملاً في مقاصده، وتفقهاً في أحكامه، وتعرفاً على فضائله وثواب منساكه، وتعلماً لآدابه، وتصوراً لمشاقه، وإعداداً

---

(١) جامع الترمذي، رقم: ٣٨٩٥، وقال حسن غريب صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٣٠٥٧.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٢٥٥٣.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٧٠٤.

لمتطلباته، وعملاً بما يستحب للعازم عليه قبل رحيله؛ فإن ذلك مما يعين العبد على بر الحج، وأدائه له على وجهه.

٣ـ الحرص على براءة ذممهم:

أوجب الله ـ تعالى ـ حج بيته الحرام على القادرين من عباده فقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولذا فلا تزال ذمة المستطيع له مشغولة به، ولا تبرأ إلا بأدائه.

ومن تأمل في سيرته ﷺ في الحج شاهد بجلاء حرصه ﷺ على براءة ذمم أهل بيته، وخُلُوِّها من الانشغال بعهدة هذا الواجب العظيم، والشواهد الدالة على ذلك عديدة، منها:

اصطحابه ﷺ في خروجه للحج جميع زوجاته التسع رضي الله عنهن[1].

ومنها: خروجه ﷺ بضعفة أهله معه[2].

ومنها: تحريضه ﷺ لآل بيته ـ حتى المريض منهم ـ على المسارعة بأداء النسك، ومن ذلك: أنه ﷺ دخل على ابنة عَمِّه: ضباعة بنت الزبير

---

(١) انظر: سنن أبي داود، رقم: ١٧٢٢، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٥١٥، زاد المعاد لابن القيم: ٢/ ١٠٦، السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٢٢٢ واللذان نصا على أن كل زوجاته ﷺ خرجن معه.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٧٨، ١٦٨٠، صحيح مسلم، رقم: ١٢٩٣.

ـ رضي الله عنها ـ وهي عليلة، فقال لها: «ما يمنعك يا عَمَّتاه من الحج؟ فقالت: أنا امرأة سقيمة، وأنا أخاف الحبس. قال: فأحرمي، واشترطي أن محلك حيث حُبِسْتِ»[١]، وفي رواية: أنه ﷺ قال: «أما تريدين الحج هذا العام؟!...»[٢].

واليوم نرى كثيراً من كبار السن والنساء القادرات على الحج لم يؤدوا فريضة الله مع قدرتهم على ذلك، فبادر ـ إن نَعَّمَك ربك ـ بالإحسان إليهم، بأخذهم للحج، فإن الآفات قد تمنع، والعوارض قد تعوق، والدنيا لا تثبت لأحد على حال، والنبي ﷺ قد حث على التعجل في أداء النُّسك، فقال: «من أراد الحج فليتعجل؛ فإنه قد يمرض المريض، وتضل الضالة، وتعرض الحاجة»[٣]، وفي رواية قال ﷺ: «تعجلوا إلى الحج ـ يعني: الفريضة ـ؛ فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له»[٤].

وأنت على فعلك مثاب مأجور، كما يدل لذلك قوله ﷺ للمرأة التي رفعت له صبياً، وقالت: ألهذا حج؟: «نعم، ولك أجر»[٥]، بل الثواب

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٥٠٨٩، سنن ابن ماجة، رقم: ٢٩٣٦، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٧٥، واللفظ له.

(٢) سنن ابن ماجة، رقم: ٢٩٣٧، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٧٦.

(٣) سنن ابن ماجة، رقم: ٢٨٨٣، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٣١.

(٤) المسند لأحمد، رقم: ٢٨٦٨، وهو حديث حسن لغيره.

(٥) صحيح مسلم، رقم: ١٣٣٦.

هنا أعظم؛ لأن حَجَّك بأهلك فرض، وحج المرأة بالصبي ليس بفرض، والله أعلم.

٤ـ تشجيعهم على الخير:

كان النبي ﷺ يحث آل بيته ـ رضي الله عنهم ـ على فعل الطاعات، ويشجعهم على التزود من الخيرات، ومن ذلك: أنه حين مرَّ على بني عمومته، وهم ينزعون الماء من بئر زمزم ويسقون الناس، خاطبهم قائلاً: «انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم»[(١)]، وفي رواية أنه ﷺ قال لهم: «اعملوا؛ فإنكم على عمل صالح، لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه ـ يعني: عاتقه ـ»[(٢)]، بل إنه ﷺ كان ييسر لهم ذلك، ومنه: إذنه لعمِّه العباس ـ رضي الله عنه ـ البيتوتة بمكة ليالي أيام التشريق من أجل سقايته الحجيج[(٣)].

والحج بوابة للإحسان، وموسم للخيرات، وأعداد الضعفاء والمساكين فيه غفيرة، فإن أردت أن تتضاعف حسناتك، وتثقل موازينك بأعمال غيرك، وأن تحسن إلى الحجيج، وتربي أهل بيتك على القربات؛ فدُلَّهم

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٦٣٦.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٧٤٥.

على الخير، ويسره عليهم، وشجعهم على الإحسان إلى المحتاجين، فقد قال النبي ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»(١)، وقال ﷺ لرجل دل آخر على من يحمله: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»(٢)، وفي رواية أنه ﷺ قال: «إن الدال على الخير كفاعله»(٣)، وإياك أن ترغبهم في ضلالة، أو توصيهم بذنب، أو تيسر عليهم منكر، فقد حذرك من ذلك النبي ﷺ فقال: «ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»(٤).

٥ـ الاستعانة بهم:

استعان النبي ﷺ بآل بيته ـ رضي الله عنهم ـ، واستنابهم واستعملهم في بعض أمره، **ومن شواهد ذلك:**

جَعلُه ﷺ زوجه عائشة ـ رضي الله عنها ـ تفتل له قلائد بُدْنه من صوف ـ كان عندها بالمدينة ـ قبل أن يحرم(٥).

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ٢٦٧٤.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٨٩٣.

(٣) جامع الترمذي، رقم: ٢٦٧٠، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢١٥١: حسن صحيح.

(٤) صحيح مسلم، رقم: ٢٦٧٤.

(٥) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٩٦، ١٧٠٤، ١٧٠٥.

ومنها: ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «قال رسول الله ﷺ غداة العقبة - وهو على ناقته -: اُلقطْ لي حصىً. فلقطت له سبع حصيات»(١).

ومنها: إعطاؤه ﷺ لعلي - رضي الله عنه - ما بقي من بُدْنِه لينحرها(٢)، وأمره ﷺ له بأن يقوم على بُدْنِه، وبأن يتصدق على الناس بلحومها وجلودها وأجلتها(٣).

ومنها: استسقاؤه ﷺ من بني عمِّه حين جاء إليهم، وهم يسقون الناس من زمزم، فقال لعمِّه العباس - رضي الله عنه -: «اسقني. فشرب منه»(٤)، ويدل عليه - أيضا - حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «سقيت رسول الله ﷺ من زمزم، فشرب وهو قائم»(٥).

ومنها: تطييب عائشة له ﷺ للحلِّ والإحرام بذَرِيرَة(٦) وطيب فيه مسك في بَدَنِه ورأسه، وكان ذلك أطيب ما وجدت، إذ كانت - رضي الله

---

(١) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٩، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥٥.

(٢) انظر: سنن ابن ماجة رقم: ٣٠٧٤، وصححه الحديث الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٩٤.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧١٨، ٢٢٩٩، صحيح مسلم، رقم: ١٣١٧.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ١٦٣٥.

(٥) صحيح البخاري، رقم: ١٦٣٧.

(٦) فتات قصب طيب، يجاء به من الهند، انظر: شرح النووي على مسلم: ٨/ ١٠٠.

عنها ـ تقول: «طيبت رسول الله ﷺ بيدي هاتين حين أَحْرَم، ولحله حين أَحَلَّ قبل أن يطوف ـ وبَسَطَت يديها ـ»[1].

فيا من ينشد المعين البعيد مهملاً القريب.. هذا هدي نبيك ﷺ، وتلك سنة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قبله، انظر إلى موسى ـ عليه السلام ـ يسأل ربه قائلاً: ﴿**وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً**﴾ [**طه**: ٢٩ - ٣٤] ولوط ـ عليه السلام ـ لما أنه عجز عن دفع أذى قومه تمنى قرابة تحميه، فقال: ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ [**هود**: ٨٠]، ذلكم أقرب إلى الفطرة، وأسرع في إنجاز العمل وبلوغ الغاية. . من إهمال القرابة، وحرمانهم بركة الإسهام في الخير والعون عليه، فيعطل ذلك الاستفادة منهم، ويحرم الداعية نفسه بذلك من خير كثير.

٦ ـ وقايتهم من الفتن:

الفتن مفسدات للقلوب، مزيغات للألباب، وحين تجتمع الجموع العظيمة من الذكور والإناث تكون الفرصة مهيأة لحصولها، وبخاصة فتنة النساء، ولذا نجد النبي ﷺ يخاف على آل بيته ـ رضي الله عنهم ـ في الحج، ويحرص ﷺ على حمايتهم منها وعدم تعرضهم لها.

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٧٥٤، وانظر، رقم: ٥٩٣٠، صحيح مسلم، رقم: ١١٨٩.

ومن الشواهد الدالة على ذلك:

لَيُّه ﷺ لعنق الفضل بن العباس - رضي الله عنهما - حين أخذ ينظر إلى الفتاة الخثعمية، خوفاً من أن يفتن الشيطان قلبيهما، كما جاء في حديث علي - رضي الله عنه - قال: «قال العباس: يا رسول الله، لِمَ لويت عنق ابن عمِّك؟، قال: رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما»[1]، وفي رواية: «إني رأيت غلاماً شاباً، وجارية شابة فخشيت عليهما الشيطان»[2].

ومنها: إسدال نسائه ﷺ بحضرته للجلابيب على وجوههن، وهن محرمات عند محاذات الرجال لهن، فإذا جاوزوهن كشفن[3].

ومنها: توجيهه ﷺ لنسائه بعدم مخالطة الرجال في الطواف مع أنهن - رضي الله عنهن - كن يطفن معهم، كما يدل لذلك قوله ﷺ لأم سلمة - رضي الله عنها - حين اشتكت إليه أنها شاكية: «طوفي من وراء الناس

(١) جامع الترمذي، رقم: ٨٨٥، وقال حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٧٠٢.

(٢) المسند لأحمد، رقم: ٥٦٤، وإسناده حسن.

(٣) سنن أبي داود، رقم: ١٨٣٣، وفي سنده يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف، ولكن للحديث شواهد يقوى بها، منها: قول أسماء - رضي الله عنها - عند ابن خزيمة، رقم: ٢٦٩٠، بسند صحيح، قالت: «كنا نغطي وجوهنا من الرجال»، وانظر: ما سطره الأرناؤوط في حاشية جامع الأصول على الحديث رقم: ١٣٠٤، ١٣٠٥. ويلاحظ أن هذا لا يخص نساء النبي ﷺ، فهذه أسماء - رضي الله عنها - ليست منهن وإذا ظُن اختصاصهن بشيء من أمر الحجاب، فغيرهن من باب أولى.

وأنت راكبة»[١]، وفي رواية أنه ﷺ قال لها: «إذا أقيمت صلاة الصبح فطوفي على بعيرك، والناس يصلون. ففعلت، ولم تصلِّ حتى خرجت»[٢]، وكما يفهم ذلك من حديث ابن جريج قال: «أخبرني عطاء إذْ منع ابن هشام النساء الطواف مع الرجال، قال: كيف يمنعهن، وقد طاف نساء النبي ﷺ مع الرجال، قلت: أَبَعْدَ الحجاب أو قبْل؟ قال: إي لعمري لقد أدركته بعد الحجاب، قلت: كيف يخالطن الرجال؟، قال: لم يكن يخالطن، كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تطوف حَجْرَة من الرجال[٣] لا تخالطهم، فقالت امرأة: انطلقي نستلم يا أم المؤمنين؟ قالت: عنكِ. وأبت، فكن يخرجن متنكرات بالليل فيطفن مع الرجال، ولكنهن كن إذا دخلن البيت قمن حتى يدخلن وأُخْرِج الرجال، وكنت آتي عائشة أنا وعبيد بن عمير، وهي مجاورة في جوف ثبير، قلت: وما حجابها؟ قال: هي في قبة تركية، لها غشاء، وما بيننا وبينها غير ذلك، ورأيت عليها درعاً مورداً»[٤]، وفي رواية: قال: «وقد رأيت عليها درعاً معصفراً، وأنا صبي»[٥]، ويفهم ـ أيضاً ـ من قول عائشة

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٦١٩.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٦٢٦.

(٣) معنى تطوف حَجْرَة من الرجال: أي تطوف في ناحية، منعزلة عن الرجال منفردة عنهم، انظر: النهاية لابن الأثير: ١/ ٣٤٢، فتح الباري لابن حجر: ٣/ ٥٩٦.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ١٦١٨.

(٥) مصنف عبد الرزاق، رقم: ٩٠١٨.

ـ رضي الله عنها ـ لمولاة لها طافت بالبيت سبعاً واستلمت الركن مرتين أو ثلاثا: «لا آجرك الله، لا آجرك الله، تدافعين الرجال، ألا كبرت ومررت»[١]، إذ ما كان لها ـ رضي الله عنها ـ وهي زوج رسول الله ﷺ أن تترك أمراً أمر به رسول الله ﷺ، أو تنهى عن شيء فُعِل بين يديه.

ومنها: عدم تشريعه ﷺ لهن الرمل بالبيت، والسعي الشديد في بطن المسيل بين الصفا والمروة، كما يفهم ذلك من قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «يا معشر النساء، ليس عليكن رمل بالبيت، لكُنَّ فينا أسوة»[٢]، وفي رواية: «أليس لكُنَّ بنا أسوة؟! ليس عليكن رمل بالبيت ولا بين الصفا والمروة»[٣].

ومنها: توجيهه ﷺ لزوجاته ـ رضي الله عنهن ـ بلزوم بيوتهن بعد حجتهن معه، إذ قال ﷺ في حجة الوداع مخاطباً إياهن: «هذه ثم ظهور الحُصُر»[٤].

وفي الحج ـ نتيجة الجهل والزحام ـ تتهيأ الفرصة لفئة من ضعاف النفوس لممارسة بعض المنكرات، مما يحتم على كل ولي رشيد أن يتقي الله في أهل

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ٨١.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ٨٤.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة، رقم: ١٢٩٥١.

(٤) سنن أبي داود، رقم: ١٧٢١، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٥١٥.

بيته، وأن يحافظ عليهم ويحميهم من بعض مَن لم يستحيي من الله، ويقدره حق قدره في تلك البقاع المباركة، حتىٰ لو أدىٰ به الأمر إلىٰ ترك بعض مستحبات الأنساك المكانية أو الزمانية؛ إذ درء المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح، وقيام الولي بذلك من تمام حفظه لرعيته، وقد قال النبي ﷺ: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة»[1].

٧- نهيهم عن المنكر:

حرص النبي ﷺ علىٰ تنقية آل بيته - رضي الله عنهم - من المعاصي، وتصفيتهم من المنكرات، فكان إذا وقع أحدهم في منكر أنكر عليه، وصرفه عنه، ومن ذلك:

إنكاره ﷺ العملي على الفضل بن العباس - رضي الله عنهما - النظر إلىٰ المرأة الخثعمية التي جاءت تسأل النبي ﷺ ومنعه له من معاودة النظر[2].

ومنها: إنكاره ﷺ أيضاً علىٰ الفضل النظر إلىٰ ظُعُن كن يجرين فطفق ينظر إليهن[3].

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٤٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥١٣.

(٣) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

ومنها: جعله ﷺ من آل بيته - في هذا الجانب - قدوة للناس، ومضرب مثل لهم، ومن ذلك حين قام ﷺ خطيباً في الناس بعرفة، فقال: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع: من دمائنا: دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع: ربانا: ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله».

وفي وقتنا: تتفشى في موسم الحج - في أوساط طائفة من الأهالي - كثير من الأعمال المفارقة لهدي النبي ﷺ في النسك، والتي قد تبطل الحج أو تقدح في كماله، وتنتشر بينها كثير من المعاصي والمنكرات، وبخاصة منكرات النساء من تبرج وسفور ومخالطة لمن لا يحل... ونحو ذلك.

فرحم الله عبداً قام بالأمانة كما يجب، فصرف أهل بيته عن مواقعة الذنوب، وأمرهم بالمعروف، وأزال ما لديهم من منكر.

٨- الرفق بهم والتيسير عليهم:

كان النبي ﷺ في الحج رفيقاً بآل بيته، رحيماً بهم، يحن على ضعيفهم، ويختار الأيسر لهم، ويعطف على صاحب الحاجة منهم ويخفف عنه، والشواهد الدالة على ذلك عديدة، منها:

اختياره ﷺ الأيسر لزوجاته، وأمرهن به، كما يدل لذلك حديث حفصة ـ رضي الله عنها ـ: «أن النبي ﷺ أمر أزواجه أن يحللن عام حجة الوداع»[١].

ومنها: قوله ﷺ لما دخل على ضباعة بنت الزبير ـ رضي الله عنها ـ وهي وجعة: «حجي واشترطي، وقولي: اللهم محلي حيث حبستني»[٢].

ومنها: تقديمه ﷺ لضعفة أهله في النفرة من مزدلفة، كما في حديث الفضل بن العباس ـ رضي الله عنهما ـ: «أن النبي ﷺ أمر ضَعَفة بني هاشم أن ينفروا من جمع بليل»[٣].

ومنها: ما جاء عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «نزلنا المزدلفة، فاستأذنت النبي ﷺ سودة أن تدفع قبل حُطَمَة الناس، وكانت امرأة بطيئة، فأذن لها، فدفعت قبل حُطَمَة الناس، وأقمنا حتى أصبحنا، ثم دفعنا بدفعه»[٤]، وحديث ابن شوَّال أنه دخل على أم حبيبة ـ رضي الله

(١) صحيح البخاري، رقم: ٤٣٩٨.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٥٠٨٩.

(٣) سنن النسائي، رقم: ٣٠٣٤، وقال الألباني في صحيح النسائي، رقم: ٢٨٤٠: حسن صحيح الإسناد، وانظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٧٨.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ١٦٨١، والحُطَمَة: من يكثر منه الحَطْم، ومنه سميت النار الحُطَمَة؛ لأنها تحطِم كل شيء، والمراد هنا: قبل أن يزدحم الناس ويدوس بعضهم بعضاً، انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ١/ ٤٠٣، لسان العرب لابن منظور، مادة (حطم).

عنها - فأخبرته أن النبي ﷺ بعث بها من جَمْع بليل[١].

ومنها: قوله ﷺ لزوجه أم سلمة - رضي الله عنها - لما اشتكت إليه أنها تشتكي: «طوفي من وراء الناس، وأنت راكبة»[٢].

ومنها: إذنه ﷺ لعمِّه العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - أن يبيت بمكة ليالي منىٰ؛ من أجل سقايته[٣].

فإذا كان الحجيج معه ﷺ قليلي العدد جداً مقارنة بأعداد اليوم، وهم - مع ذلك - أتقىٰ هذه الأمة وأرفقها، وأكثرها وقاراً وسكينة، ورفق ﷺ بأهله هذا الرفق، ويسر عليهم هذا التيسير، فحاجة الأهالي - من كبار سن ونساء وأطفال - إلىٰ الرفق والتيسير في زماننا من باب أولىٰ؛ إذ - مع تضاعف الأعداد - عَظُم الجهل، وحج البيت أناس كثير ضعفت خشيتهم لله، وندر رفقهم بالآخرين، فاتق الله - تعالىٰ - في أهلك، واختر الأيسر عليهم، والأخف في حقهم - في ظل ضوابط الشرع وأحكامه -؛ فإن ذلك خير لك، وأرجىٰ لعظم مثوبتك.

٩- الصبر عليهم:

إثبات صبره ﷺ في الحج علىٰ آل بيته - رضي الله عنهم - لا يحتاج إلىٰ

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢٩٢.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٤٦٤.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٦٣٤.

كبير عناء، وإمعان فكر، وتدقيق نظر؛ إذ كان ﷺ معلماً لهم وقائماً بشؤونهم في وقت واحد، وكان في أهله مَن كَبُر سنُّه وثقل كزوجه سودة[(١)]، والمريض الشاكي كضباعة[(٢)] وأم سلمة[(٣)]، وكثير من النساء كابنته فاطمة[(٤)] وجميع زوجاته[(٥)]، وغلمان بني عبد المطلب وبني هاشم[(٦)]، فما رئي صبر كصبره، ولا مَن هو أكثر احتمالاً لأهله منه؛ إذ وجَّه وأرشد[(٧)]، ورحم ورفق[(٨)]، وأحسن وأنفق[(٩)]، وراعى وواسى[(١٠)]، وفاكه ولاطف[(١١)]، وصان الحقوق[(١٢)] وشجَّع على الخير[(١٣)]، ودبَّر شأنهم أحسن تدبير، وقام بالأمر خير قيام، كل ذلك

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٦٨١.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٥٠٨٩.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٤٦٤.

(٤) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٥) انظر: زاد المعاد لابن القيم: ٢/١٠٦، السيرة النبوية لابن كثير: ٤/٢٢٢.

(٦) المسند لأحمد، رقم: ٣٥١٣، وإسناده صحيح.

(٧) انظر على سبيل المثال: صحيح مسلم، رقم: ١٢١١، المسند لأحمد، رقم: ٢٦٥٩٠، وسنده صحيح.

(٨) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ٤٣٩٨، ١٦٧٨.

(٩) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٤، ٥٥٤٨.

(١٠) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ١٧٨٨، صحيح مسلم، رقم: ١٢١١.

(١١) انظر على سبيل المثال: المسند لأحمد، رقم: ٢٥٠٧، وإسناده صحيح.

(١٢) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ١٦٣٦.

(١٣) انظر على سبيل المثال: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

بنفس منبسطة وصدر منشرح، ودون أن يسمع منه ﷺ لفظ نابٍ، أو يصدر منه مِنَّة أو أذىٰ.

فيا لله..تلك الشمائل المحمدية، والأخلاق القرآنية، التي تنبئ عن عظمة بشرية، ونفس كبيرة رضيَّة.

الصبر علىٰ الأهل مهمة شاقة، وعمل جليل لا يطيقه إلا الكبار، ولا يحتمله إلا الرجال، ذلك أن المخالطة اليومية ودوام المعاشرة يرفع الكلفة ويزيل الهيبة - غالباً - فيحتاج الرجل إلىٰ قدر مضاعف من الصبر والاحتمال؛ ليضبط الأمور ويصل إلىٰ مبتغاه، وبخاصة في هذا الموسم العظيم التي يزداد فيه العدد وتعظم المشقة وتشتد.

فهل من مريد للأجر، راج للآخرة.. يلزم نفسه بالصبر الجميل علىٰ أهله وولده وقرابته، ويطرق بوابة الإمامة والرفعة والريادة، كما يدل لذلك قوله - تعالىٰ -: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤]. وذلك طريق محبة الله وتأييده كما قال - سبحانه -: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٦] وكما قال - عز وجل -: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٣]، كما أنه سبيل ألفة، ونافذة لمزيد مودة.

١٠ ـ مراعاتهم ومواساتهم:

كان النبي ﷺ يراعي خواطر أهله، فيفعل ما يريدون إذا كان الأمر لا يعارض مراد الله ـ تعالىٰ ـ، ويواسي أقاربه حين كان الأمر يقع علىٰ خلاف ما يشتهون، وأبرز ما كان هذا الأمر في الحج: مع زوجه عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وذلك حين دخل عليها وهي تبكي؛ لأنها منعت العمرة المفردة بسبب الحيض، فواساها ﷺ وأخذ بخاطرها قائلاً: «فلا يضرك، أنت من بنات آدم، كتب الله عليك ما كتب عليهن، فكوني في حجك عسىٰ الله أن يرزقكِها»(١)، وحين قالت ـ رضي الله عنها ـ «يا رسول الله، أترجع صواحبي بحج وعمرة وأرجع أنا بالحج؟ فأمر رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن أبي بكر، فذهب بها إلىٰ التنعيم، فلبَّت بالعمرة»(٢)، وفي رواية أنه ﷺ قال لها: «يسعك طوافك لحجك وعمرتك. فأبت، فبعث بها مع عبد الرحمن إلىٰ التنعيم فاعتمرت بعد الحج»(٣).

فمن يا ترى يفعل اليوم بأهله في الحج كفعله ﷺ، ويأخذ بهديه في التعامل معهم؟! إن غالب الناس اليوم في هذا السبيل بين إفراط وتفريط، على فئتين:

إحداهما: قدمت مرادات أهلها وشهواتهم علىٰ مرادات الله ـ تعالىٰ ـ

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٧٨٨، وانظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١١.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٥٦١، صحيح مسلم، رقم: ١٢١١، سنن أبي داود، رقم: ١٧٨٢، وسنده صحيح، واللفظ له.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٢١١.

ومحبوباته، فتجاوزت لذلك حدود الله، وانتهكت حرماته.

وأخراهما: سيئة الخلق مع أهلها، عابسة الوجه، قاطبة الجبين، ليس في قاموسها ما يُعرَف بأخذ وعطاء، أو حوار واستشارة، أو مواساة ومراعاة للخواطر، بل العلاقة قائمة بينهم على الأمر والنهي بفظاظة وغلظة، والمطالبة السريعة بالتنفيذ دون انتظار أو قبول اعتذار.

ودين الله - تعالى - وسط بين الغالي والجافي؛ فهو يدعو إلى مراعاة الأهل، ويحث على الأخذ بخواطرهم شريطة أن لا يكون في ذلك انتهاك لحرمات الله وتجاوز لحدوده، فالزم ذلك تسعد، وعليك به تفلح.

١١ - التلطف معهم:

كان النبي ﷺ في الحج جميل العشرة، حسن المنطق، يتودد إلى أهله، ويتلطف معهم، ويباسط صبيانهم و يداعبهم، يقول جابر - رضي الله عنه - واصفاً إياه حين أَهَلَّ ﷺ بحج، وأهلت عائشة - رضي الله عنها - بعمرة: «وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هَوِيت الشيء تابعها عليه»(١)، والشواهد على ذلك عديدة، منها:

قوله ﷺ لابنة عمه الزبير: ضباعة - رضي الله عنها -: «ما يمنعك

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٣.

يا عمَّتاه من الحج؟!»[١].

ومنها: قوله ﷺ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ حين حاضت فدخل عليها وهي تبكي: «ما يبكيك يا هَنْتَاهُ؟!»[٢]. ومنها: ما رواه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قدمنا رسول الله ﷺ أُغَيْلِمَة بني عبد المطلب على حُمُرَات لنا من جَمْع، فجعل يَلْطَح أفخاذنا، ويقول: أُبَيْنِيَّ: لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس»[٣]، وفي رواية: قال: «فأتانا سواد ضَعْفى بني هاشم على حُمُرات لهم، فجعل يضرب أفخاذنا، ويقول: يا بَنِيَّ أفيضوا، ولا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس»[٤]، وفي أخرى: أنه ﷺ قال: «يا بَنِيْ أخي، يا بَنِيْ هاشم: تعجلوا قبل زحام الناس، ولا يرمين أحد منكم العقبة حتى تطلع الشمس»[٥].

فإلى الله المشتكى من قوم هجروا في التعامل مع أهاليهم في الحج هذا الخُلُق النبوي الكريم، حتى صار أهالي كثير منهم لا يعرفون منهم في الموسم غير المشاحنة وسوء العشرة، والتحقير والسخرية، والمن

---

(١) سنن ابن ماجة، رقم: ٢٩٣٦، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٧٥.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٥٦٠، ومعنى ياهَنْتَاهُ: ياهذه، انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٥/ ٢٧٩، غريب الحديث لابن الجوزي: ٢/ ٥٠٢.

(٣) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٥، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥١.

(٤) المسند لأحمد، رقم: ٢٥٠٧، وإسناده صحيح.

(٥) المسند لأحمد، رقم: ٣٥١٣، وإسناده صحيح.

والإساءة، والتضجر والشكوى، والغلظة والفظاظة، بل قد يصل الأمر في أحيان إلى حد السب والشتام.

فحذار ثم حذار أن تحذو حذوهم أو تسير سيرهم؛ فإن ذلك مما يولد الحقد، ويثمر البغضاء، ويفرق القلوب، بل قد ينافي بِرَّ الحج، ويحجب عنك محو الخطايا، وغفران الله الذنوب.

١٢ـ الإحسان إليهم:

تعددت وجوه إحسانه ﷺ إلى آل بيته وتنوعت بصورة جعلت المتأمل يجزم بأن كل أحواله ﷺ معهم إحسان؛ إذ ما من جانب إلا وأنت راء بأن فضله ﷺ عليهم ظاهر، وجوده عليهم بَيِّن، ودلائل ذلك فوق الحصر، ومن أوضح ذلك:

حرصه ﷺ على أدائهم للنُّسك معه، وإقناعه لمن لم يكن ينوي منهم الخروج بالمبادرة إلى ذلك، كما في قصة ضباعة ـ رضي الله عنها ـ حين دخل عليها النبي ﷺ فقال لها: «أردت الحج؟ قالت: والله ما أجدني إلا وجعة. فقال لها: حجي واشترطي وقولي: اللهم محلي حيث حبستني»[1].

ومنها: خروجه ﷺ بجميع نسائه ـ رضي الله عنهن ـ[2]، وهو أمر

(١) صحيح البخاري، رقم: ٥٠٨٩، صحيح مسلم، رقم: ١٢٠٧، واللفظ له.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٢٢٢.

يفوق العدل ـ كما هو جلي لمن تدبر ـ؛ إذ كان بوسعه ﷺ أن لا يخرج بواحدة منهن، أو أن يقرع بينهن ويخرج بإحداهن.

ومنها: إردافه ﷺ لابن عمِّه الفضل ـ رضي الله عنهما ـ من مزدلفة إلىٰ منىٰ(١).

ومنها: هديه ﷺ عن نسائه ـ رضي الله عنهن ـ إذ ذبح البقر عنهن من غير أمرهن(٢).

وهذا جانب كبير من جوانب الكمال البشري بنصٍّ قول النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(٣). وصور الإحسان لا حصر لها، وأولاها: ما كان مقرباً لهم إلىٰ مرضاة الله ـ عز وجل ـ، ولذا خصهم الله بالأمر بدعوتهم ـ مع الأمر العام ـ، فقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فهم أحق الناس بإحسانك الديني والدنيوي، فانهج ذلك تحظ بالأجر الجزيل، وتبصر بركات ذلك عاجلاً وآجلاً.

١٣ ـ حماية حقوقهم:

صان النبي ﷺ حقوق آل بيته ـ رضي الله عنهم ـ، وحرص علىٰ

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٤.
(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧٠٩.
(٣) جامع الترمذي، رقم: ٣٨٩٥، وقال حسن غريب صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٣٠٥٧.

حفظها، وعدم تعدي الآخرين عليها، وأبرز ما يتجلى ذلك في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «طاف رسول الله بالبيت، وجعل يستلم الحَجَر بمحجنه، ثم أتى السقاية بعدما فرغ، وبنو عَمِّه ينزعون منها، فقال: ناولوني. فَرُفع له الدلو فشرب، ثم قال: لولا أن الناس يتخذونه نسكاً، ويغلبونكم عليه لنزعت معكم»[١]، فإن كان لأهلك في الحج من حق تخشى عليه فحثهم على التنازل عنه وعدم المشاحة فيه طلباً للأجر؛ فإن ذلك أولى وأجدر، فإن أبوا فاحفظه من الضياع، وصنه من اعتداء الآخرين عليه[٢].

هذه بعض جوانب أحواله ﷺ في الحج مع أهل بيته،فإذا علمت أن أهلك من خير رأس مالك فأنت مدعو لأن تعرض حالك في الحج معهم على ما قد عرفت هنا من حاله ﷺ مع أهله؛ ليبينَ لك الفرق، ويتضح لك البَوْن، فتجعل من حرصك على التأسي به ﷺ دافعاً لك لتعيد النظر في مدى قيامك بواجبك تجاههم؛ فتهتم بآخرتهم وما ينجيهم من عذاب ربهم فوق اهتمامك بدنياهم وتوفير معاشهم، محسناً تعليمهم، ومعيناً لهم على

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٦٣٦، المسند لأحمد، رقم: ٢٢٢٧، وإسناده حسن، واللفظ له.

(٢) وإنما لم يفعل النبي ﷺ مع أهل بيته ذلك؛ لأن السقاية سبيل لأجرهم، وبوابة لرفعتهم، والله أعلم.

حسن أدائهم لنسكهم وعباداتهم وصلاح أخلاقهم، ومعاملاً لهم بأجمل من معاملتك لأعز أصحابك؛ لأن حقهم عليك أعظم، وواجبك نحوهم أجلّ، فشمِّر عن ساعد الجد،وانطرح بين يدي مولاك؛ ليعينك على ذلك ويسدد خطاك.

وأخيراً:

أكرر شكري - بعد شكر المنعم الجليل سبحانه - لكل مَن مدَّنِي برأي أو عون، علىٰ أن ما سبق من سطور لا تعدو أن تكون ومضات مشرقة من أحواله ﷺ في الحج، كتبت من مَقلٍّ علىٰ عَجَل، راجياً من ربي الرحيم المعطي قبولها، والنفع بها؛ لتكون عوناً للسائرين إليه - عز وجل - علىٰ حج مبرور وذنب مغفور، والموضوع أكبر من أن يحيط به مثلي، وهو بحاجة إلىٰ مزيد بحث، وإمعان فكر، وتدقيق نظر، أسأل الله أن يهيئ له من يقوم به علىٰ وجهه من أهل العلم، إنه علىٰ كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه، واقتفى أثره إلى يوم الدين.

فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مطابع أضواء البيان - الرياض - ٤٩٥٥٦٩٤